الاتصالات التجارية والبشرية والدينية على ساحلي البحر الأحمرسواكن ودورها في رحلة الحج إلى بلاد الحجاز حتى العصر الحديث

د. حسين مجدي صالح [*]

نالت جزيرة سواكن أهمية كبيرة خلال العصر الإسلامي، باعتبارها من أهم موانئ الساحل الغربي للبحر الأحمر، ونظراً لموقع هذه الجزيرة، ومينائها الإستراتيجيان في مواجهة بلاد الحجاز، فقد لعبت سواكن دوراً مهماً في رحلة الحج، للقادمين من بلاد السودان. وكانت قوافل الحجاج تأتي إلى سودان وادي النيل من وسط وغرب إفريقيا عبر أقاليم دارفور، وكردفان، ثم كانت قوافل الحج تتجه إلى بلدة الدامر، ومنها إلى بلدة التاكة، ثم كانت القوافل تقوم برحلة شاقة عبر مسالك الصحراء، ودروبها من التاكة، وحتى ثغر سواكن من أجل الوصول إلى ساحل بحر القلزم، حيث كان الحجاج يأخذون من ميناء هذه الجزيرة مركباً يبحر بهم بعد ذلك إلى بلاد الحجاز.

وكانت لأهل جزيرة سواكن علاقات قديمة بسكان جزيرة العرب منذ أقدم العصور، حيث كانت سواكن مقصداً للهجرات العربية منذ ما قبل الإسلام، ولعل من أقدمها هجرات الجماعات والبطون العربية القادمة من بلاد حضرموت باليمن، وهم الذين ينتسب إليهم الحدارية أو الحضارمة الذين صاروا حكاماً على بلاد البجة، وهي البلاد التي تُعد جزيرة سواكن جزءاً منها. كما كانت سواكن مقصداً لهجرات الأشراف القادمين من مكة المشرفة، ولعب هؤلاء الأشراف دوراً مهماً في سواكن، وبمرور الزمن صار هؤلاء الأشراف حكاماً على الجزيرة، ومن ثم زادت أواصر العلاقات بين أهل سواكن وقاطني بلاد الحجاز وزادت هجرات الأشراف إلى سواكن، وبلغ من الأثر الحجازي على سواكن أن بيوتها ومساكنها كانت متأثرة بقوة بعمارة بلاد الحجاز، وهو ما تؤكده روايات الرحالة.

تناقش هذه الورقةُ دور جزيرة سواكن المهم في رحلة الحج إلى بلاد الحجاز، باعتبار ميناء سواكن من أهم المنافذ البحرية للحجاج القادمين من مناطق القارة الإفريقية، خاصة من بلاد السودان الغربي والأوسط. وسوف تتناول هذه الورقة أهمية سواكن ودورها في رحلة الحج، وذلك من خلال المحاور التالية:

١ – استقرار أشراف مكة بسواكن.

٢– طريق الحج من بربر إلى سواكن.

٣ – الدامر وأهميتها في طريق الحج إلى سواكن.

٤ – محطات طريق الحج من التاكة – سواكن حسب رواية بوركهارت:

التاكة –وادي لادو –وادي عدي –وادي أرواد –جبل لنقاي عربان لنقاي –وادي عسويت –وادي عسير –وادي شنكرة –وادي شنتيراب –جبل قنقراب –سواكن.

[*] معهد البحوث والدراسات الإفريقية – جامعة القاهرة.

٥. سواكن ما بين بوركهارت وتاريخها

يلاحظ عدم اهتمام المصادر العربية المبكرة بمدينة سواكن، مثل اهتمامها بباقي جزر المنطقة، مثل دهلك[٢] وباضع[٣] وعيذاب. ربما لأن تلك الموانئ كانت أكثر نشاطاً في القرون الهجرية المبكرة. ومن ناحية أخرى ربما لم يَقِم المسلمون صلات قوية مبكرة مع الممالك المسيحية[٤] في السودان عبر ميناء سواكن، لأن صلاتهم التجارية والسياسية تمت عن طريق البر عبر أسوان[٥]. وقد ورد ذكر سواكن في مصادر القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي عند الهمداني ٢٨٠هـ-٣٣٦هـ/٨٩٣م-٩٤٧م وابن حوقل ت. ٣٦٧هـ/٩٧٧م ،باعتبارها إحدى مدن البحر الأحمر. ويلاحظ سكوت المصادر العربية عن ذكر مدينة سواكن منذ القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، وحتى بداية القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي[٦]، حين وصفها ياقوت الحموي ٥٧٤هـ-٦٢٦هـ/١١٧٨م-١٢٢٥م[٧].

لم يحدد المؤرخون والكتاب بداية حقيقية لنشأة وقيام ميناء ومدينة سواكن، ولم يتفقوا على تاريخ محدد بالضبط في العصور الخالية، إلا تلك الخرافة القديمة، وهي كسائر الجزر التي كانت تطل على البحر الأحمر خالية من السكان، وليس بها إلا الجن. وقد عرف اسم سواكن وشاع بين الناس أول مرة

٢انظر: حسين سيد عبد الله مراد: جزيرة دهلك من خلال راسة شواهد القبور، نشرة معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، (د.ت)، ص-ص١-٢٠.

٣انظر: عطية القوصي: تاريخ ميناء باضع في القرون الخمسة الأولى، مجلة والدراسات الإفريقية، العدد الحادي عشر، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٨٢م، ص-ص١-٢٤.

٤للمزيد عن الممالك المسيحية انظر اثر التطور الاجتماعي في مصر في عصر الولاة في سودان وادي النيل/التأثير المصري في سودان وادي النيل في النواحي السياسية والعسكرية، والتأثير الثقافي والاجتماعي المصري في سودان وادي النيل: كرم الصاوي باز: مصر والنوبة في عصر الولاة دراسة في التاريخ الاجتماعي في ضوء أوراق البردي العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص-ص٢٦١-٣٣٣. وأيضاً انظر أسباب ومظاهر اضمحلال ممالك النوبة: كرم الصاوي باز: ممالك النوبة في العصر المملوكي اضمحلالها وسقوطها، وأثره في انتشار الإسلام في سودان وادي النيل (من ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص-ص٣٩-٧٤.

٥عن أسوان انظر: أوليا جلبي (الرحالة العثماني): الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش ١٠٨٢-١٠٩١هـ/١٦٧٢-١٦٨٠م، ثلاثة أجزاء، ترجمة وتقديم وتعليق الصفصافي أحمد القطوري، المشروع للترجمة، المركز القومي للترجمة، (١٤٩٤)، القاهرة، ٢٠١٠م.

٦فأشارت إلى مدينة سواكن إشارات مختصرة وقليلة. ومن الواضح أن نشاط ميناء سواكن بدأ في الازدهار في عصر المماليك، بخاصة بعد تدهور وانهيار ميناء عيذاب في القرن الثامن الميلادي (الـ ١٤م). وحظيت المدينة بقدر وافر من العناية عند مؤلِّفي القرن التاسع الهجري، خاصة السخاوي. ومن الملاحظ أن المصادر العربية بصورة عامة-باستثناء اليعقوبي وابن حوقل وابن سليم- لم تهتم بسكان منطقة البحر الأحمر بصورة عامة. ولا يرجع السبب في ذلك إلى ما تردَّد عن عزلة سكان هذه المنطقة، بقدر ما يرجع إلى اهتمام المصادر العربية بصورة عامة بالأحداث السياسية أكثر من غيرها، بالإضافة على أن أغلب المصادر العربية لم تتناول تاريخ شرق السودان لذاته، بل تناولت أحداثه ذات الصلة بما كان يجري في خارج المنطقة مثل مصر والحجاز واليمن، أو تجارة البحر الأحمر، ولذلك جاءت معلوماتهم عن شرق السودان موجزة. انظر: انظر: أحمد إلياس حسين: مدينة سواكن وقبيلة الحداربة في المصادر العربية حتى القرن التاسع الهجري/الرابع عشر الميلادي، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، سلسلة ندوات التنوير (٩)، مركز التنوير المعرفي، سلسلة الـ (١٠٠) كتاب في الثقافة السودانية، كتاب الخرطوم الجديدة (٧٨)، تحرير منتصر أحمد النور، الخرطوم، الطبعة الأولي، ٢٠١٣م، ص٧٥.

٧انظر: أحمد إلياس حسين: مدينة سواكن وقبيلة الحداربة، المرجع السابق، ص-ص٥٦-٥٧.

خلال القرن الثامن الميلادي، وكان ذلك عندما مرّت فلول أسرة بني أمية الهاربة بعد مقتل مروان الثاني عام ٧٥٠م في الفيوم[٨].

تقع سواكنُ[٩] في داخل تخوم بلاد البجة[١٠] وهي توجد عند نهاية خليج ضيق على ساحل بحر القلزم، وفي نهاية هذا الخليج، توجد عدة جزر شُيدت المدينة التي تحمل اسمها على إحدى هذه الجزر[١١].

وتبعد جزيرة سواكن حوالي ٧٢٠ ميلاً من ميناء القلزم السويس، وحوالي ٢٨٥ ميلاً من ميناء مصوع، و ٢٠٠ ميلاً من ميناء جدة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر[١٢]. أي أنها تقع في قاعدة شبه مثلث

٨السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م-١٩٢٣م)، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، سلسلة ندوات التنوير (٩)، مركز التنوير المعرفي، سلسلة الـ (١٠٠) كتاب في الثقافة السودانية، كتاب الخرطوم الجديدة (٧٨)، تحرير منتصر أحمد النور، الخرطوم، الطبعة الأولي، ٢٠١٣م، ص، ص١٦٩، ١٧٤.

٩ويُنطق اسم جزيرة "سَوَاكِنْ" بفتح السين المهملة، والواو، وكسر الكاف، ونون في الآخر (وللمزيد، انظر القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤، ص٢٧٤.

١٠يعيش في صحراء العرب الواقعة بين وادي النيل والبحر الأحمر جنوبي قنا وأسوان حتى الحدود الشمالية للهضبة الحبشية في الجنوب قبائل العرب "البجة"، وهم ينقسمون إلى قسمين رئيسيين، قبائل العبابدة والبشارية، ويقدر عددهم بحوالي مليونين ونصف، يقطن نصف مليون منهم داخل الحدود المصرية في صحراء العرب الشرقية، ويقطن الباقون الحدود المتاخمة للسودان وإريتريا والحبشة. وقبائل "البجة" كانت معروفة للمصريين القدماء باسم "المازوري" أو "الماجوي"، ويتميز أفرادها بنحول القامة ورشاقتها وسمار البشرة مع ميل في الحمرة، وأطوالهم متوسطة أو فوق متوسطة. ولذلك فهم قريبو الشبه "أنثروبولوجياً" بقدماء المصريين خصوصاً من حيث مقاييس جماجمهم، ويعتقد البعض أنهم من سلالة واحدة، وإن اختلفت ثقافة كل شعب منهم. ويعيش البجة في عزلة تامة لا يختلطون منذ قديم الزمن بمن يجاورهم من الشعوب، ولا يهاجرون للمعيشة بينهم، ويعتمدون كلية على الحياة في الصحراء فلا يقربون البحر ولا يتنقلون بواسطته، ولذلك فإن سلالتهم تعتبر نقية خالصة، لأنها لم تمتزج بدماء أية شعوب أخري، وقد ساعد على هذه العزلة التامة أن لغتهم "البجة" تختلف اختلافاً تاماً عن اللغات المصرية القديمة وعن اللغة العربية، هذا وإن كان البعض منهم الآن يتكلمون اللغة العربية إلى جانب لغتهم الأصلية، وهؤلاء هم أقلية، ممن استقروا على حدود مديريتي قنا وأسوان أو على حدود السودان. ولغة "البجة" لغة "حامية" وهي المسماة "التبداوي" أو "بداويت" وهي لغة تخاطب فقط أي ليس لها قواعد لكتابتها، ولذلك فإنه لا يوجد لهم تاريخ قومي مسجل، اللهم إلا النذر اليسير الذي كتبه عنهم بعض الباحثين من علماء الأجناس في السنوات الأخيرة-وكل ما يعلمه أهل هذه القبائل عن تاريخهم ما تعيه ذاكرة الأبناء منهم نقلاً عن الآباء والأجداد. وإلى جانب هذه اللغة الحامية تتكلم بعض جماعات البجة التي تقطن إريتريا وشمال بلاد الحبشة لغة سامية هي لغة "تجره" المنتشرة في هذه المناطق. وقد أدى اختلاف لغة هذه القبائل عن العربية وعزلتهم الجغرافية والاجتماعية إلى جهلهم التام بمصر وما فيها، فلا يعرفون شيئاً عن الحوادث السياسية سواء في مصر أو في السودان أو في أي بلد آخر. انظر: ملاك جرجس: الحياة الاجتماعية والاقتصادية لقبائل العرب البجة، مصر المعاصرة، مجلة المجلات العالمية، العدد العاشر، لجنة كتب سياسية، تحرير عبد المنعم شميس، القاهرة، يونيو ١٩٥٨م، ص-ص١١٦-١١٧. وللمزيد انظر: ١١٧-١٢١.

١١بينما يصف الرحالة بوركهارت John Lewis Burrckhaedt (١٧٨٤-١٨١٧م)، سواكن بقوله: "تقع على نهاية خليج ضيق يبلغ طوله اثني عشر ميلاً وعرض ميلين، وفي نهاية الخليج عدد من الجزر شُيدت المدينة على واحدة منها ... وتقع الميناء على الجانب الشرقي من المدينة، وقد كونها نتوء في القارة ولسان البحر الواقع في الغرب لا تستطيع أن ترسو فيه سفن أيا كان حجمها. والجزائر وسائر الأرض المحيطة بالمدينة رملية لا ينبت فيها غير شجيرات قليلة، أو قصيرة. والمدينة القائمة على الجزيرة مبنية على نظام جدة، فالبيوت من طابق واحد، أو طابقين، وهي مشيدة من قوالب من عرق اللؤلؤ، أنيقة المظهر، ولكن أكثرها تقادم عليه العهد، وأدركه البلى.." (للمزيد انظر رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان: ترجمة: فؤاد أندراوس، تقديم: محمود الصياد، تحقيق الأعلام: الشاطر بصيلي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٦م، ص٣٤٢.

١٢محمد مهدى كركورى: رحلة مصر والسودان، مطبعة الهلال، طبعة القاهرة، ١٩١٤م، ص٣٥٠.

غير متساوي الأضلاع ميناء السويس–مصوع—جدة تمثل هي منتصف تلك القاعدة تقريباً ما بين ميناء السويس شمالاً بمصر، وبين مصوع في الأراضي الإريترية جنوباً على طول الساحل الغربي للبحر الأحمر، ويمثل رأسه جدة تقريباً على الساحل المقابل.

تقع سواكن على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر في خط عرض شمالي ١٩ درجة و٧ دقائق، وطول شرقي ٣٧ درجة و٢٠ دقيقة. وهواء سواكن حار في الصيف، رطب في الشتاء، وظُهرها قبل ظهر مصر بعشرين دقيقة، وتطلُّ عليها من بعيد جبال سنكات[١٣] وأركويت التي تعلو ٤٠٠٠ قدم عن سطح البحر، وليس في سواكن نبع ولا نهر، وإنما يشرب أهلها ماء المطر. وسواكن مدينة تجارية قديمة تربط السودان بالحجاز والهند ومصر، ويربطها بالسودان طريق بربر، ومنها إلى سنار وكردفان ودار فور[١٤].

ويشير المؤرخون والرحالة القدامى إلى أن جزيرة سواكن لم تكن جزيرة كبيرة، إذ كان يبلغ مُحيطها ميل ونصف "وأمامها بندر يقال له القيف، بينهما في البحر مسافة ٤٠ متراً، وكان الناس يجتازونها بالزوارق" [١٥]. وحسب رواية القلقشندي، فإن سواكن بلدة صغيرة من بلاد السودان، وهو يشير إليها بقوله: "وهى قريةٌ صغيرةٌ للسودان، طوُلها ثمانٍ وخمسون درجة، وعرضها إحدى وعشرون درجة.. وقد أخبرني من رآها أنها جزيرة على طرف بحر القلزم من جهته الغربية قريبة من البر.."[١٦]. وقال عنها ياقوت الحموي: "سواكن بلد مشهور على ساحل بحر الجار قرب عيذاب[١٧] ترفأ إليها السفن الذين يقدمون من جدة، وأهلها بجاة سود، نصارى."[١٨]

١٣كما أتاحت مدينة سواكن للإنسان البجاوي التعامل مع معطيات الحضارة الجديدة، بل ساعدت في استقرار البجا في بعض المراكز الحضرية، مثل طوكر وسنكات.. وكانت سنكات بموقعها الجغرافي المرتفع مصيفاً لسكان سواكن ولحكومة سواكن. ففي اشتداد الصيف كانت قوافل السواكنية تخرج إلى سنكات حيث تسبقهم الحكومة للانتقال إليها، وكانت معظم الأسر السواكنية تمتلك منازل في سنكات، وكانت أولى معارك المهدية في شرق السودان مع حكومة سواكن في مقرها الصيفي بسنكات. انظر: بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، سلسلة ندوات التنوير (٩)، مركز التنوير المعرفي، سلسلة الـ (١٠٠) كتاب في الثقافة السودانية، كتاب الخرطوم الجديدة (٧٨)، تحرير منتصر أحمد النور، الخرطوم، الطبعة الأولي، ٢٠١٣م، ص٢٦٢.

١٤انظر: نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م، ص: ١٢١. وأيضاً: عبد الباقي محمد أحمد كبير: سواكن منذ فجر الإسلام حتى العصر المملوكي، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، سلسلة ندوات التنوير (٩)، مركز التنوير المعرفي، سلسلة الـ (١٠٠) كتاب في الثقافة السودانية، كتاب الخرطوم الجديدة (٧٨)، تحرير منتصر أحمد النور، الخرطوم، الطبعة الأولي، ٢٠١٣م، ص: ٨٢.

١٥محمد مهدي كركوري: رحلة مصر والسودان، المرجع السابق، ص:٣٥٠.

١٦القلقشندي: المصدر السابق، صبح الأعشى، ص: ٢٧٤ .

١٧انظر تاريخ عيذاب: محمد رجائي جودة الحلاوي: عيذاب دراسة تاريخية وجغرافية جيولوجية لثغر عيذاب على البحر الأحمر، علوم الأرض دراسة في التعدين وجغرافية السكان، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ٢٠١٠م، ص–ص٢٣–٣٣.

١٨ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٣، طبعة بيروت، ١٨٧٠، ص: ١٦٤.

وحسب بعض المصادر التاريخية، فإن مساحة جزيرة سواكن أقل من ميل في ميل، "وبينها وبين البحر الحبشي بحر قصير يُخاض"[19]. وعن أهل سواكن وأصلهم، يقول تقي الدين المقريزي: "وأهلها طائفةٌ من البجة تسمى الخاسة، وهم مسلمون، ولهم بها ملك.."[20]. ويشير البعض إلى أنه بجانب جزيرة سواكن، توجد مدينة على ساحل بحر القلزم تحمل ذات الاسم[21]. ويشير السويدي إلى أن طائفة الحداربة[22] وارتباطهم بسواكن، إذ يقول: "والحداربة بطن من العرب بسواكن."[23]

وتُعد مدينة سواكن من أقدم المدن التي تقع داخل تخوم بلاد البجة[24].

وكانت جزيرة سواكن حاضرة مهمة لبلاد البجة، ويؤكد ذلك القلقشندي، إذ يقول عن بلاد البجة: "وقاعدتهم سواكن، وهى بليدة للسودان.." [25]. ويُعتقد أن سواكن ذات وجود قديم، حيث كانت معاصرة

١٩المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف باسم خطط المقريزي)، جـ١ مكتبة كلية الآداب، القاهرة، دون تاريخ، ص: ٣١٩.

٢٠المصدر السابق نفسه والصفحة.

٢١محمد عبد الله النقيرة: انتشار الاسلام في شرقي إفريقيا، دار المريخ، الرياض، دون تاريخ، حاشية "١"، ص:٩٩.

٢٢انظر: أحمد ألياس حسين: مدينة سواكن وقبيلة الحداربة في المصادر العربية، مرجع سابق، ص:٥٣-٧٨.

٢٣السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص١٢٠.

٢٤بلاد البجة: تمتد أرضُ البجة من أسوان شمالاً إلى الأطراف الشمالية لهضبة الحبشة جنوباً، ومن البحر الأحمر شرقاً، وحتى نهر النيل غرباً، تلك الأراضي التي تشكل الموطن الأصلي للبجة منذ أقدم العصور. ويُعرف سكان هذه البلاد باسم: البجاة. وقد ورد اسم البجة فى أحد النقوش الأكسومية القديمة (التي تؤرخ إلى القرن الرابع قبل الميلاد)، وردت فيه باسم "بوجايتاى" Bugaitae. وقد تحدث المؤرخون عن البجة وسكانها وأصلهم، اليعقوبي (ت: ٢٩٢هـ / ٩٠٤م): "وهم من النيل والبحر، ولهم عدة ممالك، فى كل بلد ملك منفرد..". كما يشير إلى أن البجاة كانت لهم حياة مستقرة، وأنهم عرفوا نمطاً سياسياً قريباً من "النظام الملكي"، إذ كانت لهم ممالكٌ يحكمها ملوك، وإن كانت بطبيعة الحال ممالك متواضعة. كما كان البجاة يعرفون نظم الحكم الوراثية كسائر الشعوب التي حققت نوعاً من الاستقرار السياسي، أو شيئاً قريباً منه (وللمزيد، انظر مصطفى مسعد: البجة والعرب، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد٢١، المجلد الثاني، ديسمبر ١٩٥٩، ص٤، رحلة ابن جبير، تحقيق: محمد زينهم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٧٥، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، ص٢٧٣، الواقدي: فتوح الشام، جـ٢، ص٥٦، تاريخ اليعقوبي: جـ١، ص١٦٥، ويقول المؤرخ اليعقوبي أيضاً عن ممالك بلاد البجة القديمة: "ومدينة المملكة يقال لها: هجر: ولهم قبائل وبطون كما تكون للعرب ... والمملكة الثانية من البجة، مملكة يقال لها: بقلين ... ثم المملكة الثالثة يقال لها: بازين، وهم يتاخمون مملكة علوة من النوبة. . والمملكة الرابعة ... لهم ملك خطير، وملكه ما بين بلد يقال له باضع ... والمملكة الخامسة ... آخر ممالك البجة ... ثم المملكة السادسة، وهي مملكة النجاشي ... ولم تزل العرب تأتى اليها للتجارات ..." (تاريخ اليعقوبي: جـ١، ص ١٦٥ – ١٦٦) ويحدد تقي الدين المقريزي تخوم بلاد البجة بقوله: "اعلم أن أول البجة من قرية تعرف بالخزية، معدن الزمرد في صحراء قوص وبين هذا الموضع وبين قوص نحو ثلاث مراحل.". وثمة رواية للعُمرى (ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) يقول فيها: "وأما البجة، فنزلت بين القلزم ونيل مصر...". بينما يذكر البغدادي: "وأما الإقليم الثاني، واسمه أسوان، وهي المدينة التي على تخوم البجة وأرض مصر...". وقد عُرف ملوك البجة بالبأس والقوة، حتى أن بعض الروايات تنعتهم باسم "فراعنة البجة" (وللمزيد عن بلاد البجة، انظر المقريزي: الخطط، جـ١، ص٣١٣، العمرى: مسالك الأبصار في ممالك الأبصار (المختصر)، جـ٤، تقديم: عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م، ص٢٤٥، أبو الفرج البغدادي: الخراج وصنعة الكتابة، مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ، ص٢٣٠، ابن حوقل: صورة الأرض، ص٥٦، الاصطخرى: مسالك الممالك، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ٢٠١١م، ص٤٥، ابن خرداذبة: المسالك والممالك، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دون تاريخ، ص٨٣، اليعقوبي: كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩٣م، ص٣٧، ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأبصار(رحلة ابن بطوطة)، تعليق: محمد السعيد الزيني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دون تاريخ، ص٤٩).

لقدامى المصريين، وكذلك البطالمة والرومان، غير أنها ازدهرت بعد قدوم العرب مصر[٢٦]. ويقال إن سيدنا سليمان عليه السلام أمر بأن تتخذ جزيرة سواكن سجناً للمجرمين[٢٧]. كما اتخذ الأمويون جزيرة دهلك أيضاً منفي لمن تحدث منه أضرار للمسلمين أو يثور على حكومتهم. فكانت لسواكن شهرة طائلة حين أن سفن الملك سليمان ابن داود، كانت تسير إلى ترشيش مع عبد حورام، وتأتي مرة كل ثلاث سنوات إلى سواكن، حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقروداً وطواويس كما جاء في التوراة. مما جعلها مركزاً اتحادياً مهماً، تلتقي فيه التجارة بين الشرق الأقصى والأدنى. وكان قد اتخذها رعمسيس الثاني قاعدة لأسطوله التجاري الذي كان يرتاد ثغور البحر الأحمر والمحيط الهندي، لتسهيل سبل التجارة بين بلاده والشرق الأقصى. فخضع ملك البجة لسلطانه ومن بعده رعمسيس الثالث[٢٨]. ويقول المستر وايلد بوجود طريق قديم جداً من مروي إلى رأس بناس، يخترق طريق سواكن–بربر حتى رواية محمد قول. وفي الطريق علامات يتبعه الحجاج الأحباش الذين كانوا يؤمون القدس عن طريق البادية، بدلاً من طريق سواحل البحر الأحمر الذي كان شديد الخطر عليهم.[٢٩] وكثيراً ما ذبحت قوافلهم اليهودية والمسيحية بيد قبائل البجة واستولي البطالمة على سواكن في عهد بطليموس الثاني المسمى فلادلفوس ٢٨٥–٢٤٧ ق.م وفي أيامه بلغت سواكن الدرجة القصوى في الأهمية التجارية. وتضاءلت أهمية سواكن منذ استيلاء الرومان على القطر المصري سنة ٢٨٤م. وشجر خلاف بين ملك قبائل البجة المقيم بسواكن ومندوب ملك الرومان بمصر بعد استيلاء الرومان على مناجم الذهب والزمرد واللآلئ. ودافع البجة عن أراضيهم ومعادنهم وحالوا دون استعمارها. فجند نائب ملك الرومان جيشاً عرمرماً لقتال البجة ٢٨٤م ،وانتصر عليهم بعد قتال عنيف، ولكن قبائل البجة توالت غاراتها وانتقاماتها من قوات الرومان، التي كانت معسكرة حول المعادن، وعلى أطراف الحدود بدون انقطاع حتى سنة ٣٢٣م. انتهت بمعاهدة ما بين

٢٥القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، ص٢٧٤

٢٦نهى حمدنا الله مصطفى حسن: البجة وعلاقتهم بمصر الإسلامية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠١٤م، ص٩٤.

٢٧السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م–١٩٢٣م)، مرجع سابق، ص١٧٤. وهناك رأي يشير أن كلمة سواكن مشتقة من لفظ (سجون) جمع سجن، والطريف بل الغريب أن يعتبر ذلك الموقع سجناً يضم الخارجين عن القانون والمجرمين، وأن الملك سليمان كان يستخدمه لذلك الغرض. ويذكر أصحاب ذلك الرأي أن لفظ (سجون) أصابه التحريف مع مرور الزمن فأصبح (سكون)، ومنها اشتقت كلمة سواكن. وثمة رأي آخر يدعمه الخيال وينبثق من قصة خيالية حيث يرون أن الاسم في الحقيقة (سجن الجن) وأن الملك سليمان يسجن الجان العاصي والمردة في هذا الموقع، ثم حرّف الاسم بعد ذلك فصار سواكن.

٢٨السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م–١٩٢٣م)، مرجع سابق، ص١٧٣. والمعروف أن اسم سواكن لم يظهر، ويستخدم في الكتب إلا منذ العصر الإسلامي العربي. وهناك عدة فرضيات وقصصاً يتداولها الكتاب لتفسير اسم (سواكن). ومن تلك الآراء ما ذهب إليه الكاتب الأستاذ شاطر بصيلي، من أن اسمها يدل على أنها من أصل مصري قديم (شواخن)، ويعني ذلك أنها محطة (شوا) التي تعتبر إقليماً نيلياً من صميم الحبشة، ويذكر أن تحوُّل كلمة (خن) إلى (كن) نتيجة للظروف المتعلقة بخلو أبجدية اللغات البجاوية من حرف الخاء.

٢٩انظر: سيف الإسلام بدوي بشير: سواكن الملاحة وتداعيات الحركة التجارية في البحر الأحمر من القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، سلسلة ندوات التنوير (٩)، مركز التنوير المعرفي، سلسلة الـ (١٠٠) كتاب في الثقافة السودانية، كتاب الخرطوم الجديدة (٧٨)، تحرير منتصر أحمد النور، الخرطوم، الطبعة الأولي، ٢٠١٣م، ص١١٧.

الرومان والبجة مقابل دفع ملك الرومان مبلغ من المال لملك البجة في سواكن، مقابل الكف عن الغارات لمدة ربع قرن حتى سنة ٤٥١م. حتى قام القائد الروماني مارشيان بعقد صلح ومعاهدة جديدة، فاتفقوا وحافظوا جميعاً على المهادنة إلى أن دالت دولة الرومان على يد قائد الجيش الإسلامي وذلك في سنة ٢٠هـ. وبدأ الخراب يدب في سواكن، كما بدأ العمران يتقدم في ميناء عيذاب بدلاً منها، واضطر ملك البجة للرحيل عن سواكن إلى جبل هجر هقر. وبدأ نزوح العرب إلى مناجم الثروة المعدنية. واستمر القتال بين العرب والبجة حتى ضعفت شوكة الآخرين واستسلموا للسيادة العربية سنة ٢٥٥هـ. وفي سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م هاجرت قبيلة الأرتيقة من حضرموت إلى سواكن. ولم يكن اهتمامهم إلا بالتجارة وارتياد موانئ البحر الأحمر، واندمج كثيرون منهم في قبائل البجة التابعين لنظارة الهدندوة وبني عامر[٣٠].

والسكان الأصليون للسودان الشرقي معظمهم من أصول حامية، وينتسبون إلى مصريي ما قبل الأسرات.. بينما البجاة ليس كغيرهم احتفظوا بعرق حامي رقي من الآخرين[٣١]وبعض البجا البجاة الذين

٣٠اسنظر: محمد صالح ضرار تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، ص-ص٢٤-٢٥، ص، ص٢٧، ٢٩، ص-ص٣١-٣٢، ص٣٤.

٣١البجة هو الاسم الذي أطلقه الكتاب العرب على مجموعة القبائل البدوية الحامية الحقيقية، والتي تعيش في المنطقة الشرقية بين النيل وعطبرة والبحر الأحمر، وتعانق السهل الأوسط وجبال البحر الأحمر والمنطقة الشرقية والجبال جنوب طوكر. وبالرغم من أنه كان اختلط بالدم الأجنبي فقد شكلت هذه القبائل وحدة في كل من مميزاتهم الجسمانية واللغوية. وأشار سلجمان إلى أن هناك شبهاً جسمانياً واضحاً بين بجة اليوم، والمجموعة المصرية لما قبل الأسرات، وهناك بعض من الدم العربي؛ إذ إن ربيعة استقرت بينهم في القرن التاسع عشر، ولكنها لم تغير من صفاتهم الجسمانية والاجتماعية، وكان بجة الشمال أكثر تحولاً بالدماء الزنجية من أولئك الذين يقطنون الجنوب. وقد اعتنق البجة الإسلام واتخذوا النسب العربي، ولكنهم حافظوا على لغاتهم الأصلية وصفاتهم السلالية وعاداتهم، لدرجة أنهم لا يختلفون إلا قليلاً عن البجة الذي وصفهم ابن سليم قبل ألف عام. إن الرواية التي ذكرها ابن سليم بأن البجة شعب بدوي وثني صحيحة، وما زال ينطبق عليهم حتى اليوم، ولكن دخولهم في الإسلام أدى إلى حشد أقصي درجات التعصب في بعض المجموعات، ومع ذلك فالأرضية المشتركة لأسلوب حياتهم وعاداتهم لم تتغير فيما عدا ما يتعلق بالنسب الأمومي. إن عاداتهم خاصة المتعلقة باللبن-تصنفهم مع معظم القبائل الحامية الموجودة في شرق إفريقيا. والبشارين والهدندوة-نتيجة للحياة في الجبال لقرون-شعب رحولي ومستقل، أما المجموعات النائية فهي مشاكسة وقاسية وانتقامية. والبدو-خاصة النساء خجولون جداً في الاتصال بالغرباء، والأمرار وبني العامر مسلمون وأكثر قابلية للتعلم من المجموعات الشمالية والجبلية. وبينما هذه القبائل بدوية بدرجات مختلفة، وتبدي نفس الصفات العامة، فإن حياتهم الاجتماعية والاقتصادية تختلف بشكل جوهري عن حياة البدو العرب، وهذا مرجعه بشكل كبير للجدب الشديد لبعض الجبال من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى الخصوصية النسبية للجبال الأخرى. والسهل الواسع الذي يشغلونه، والتنظيم القبلي للبجة فضفاض بشكل عام عما هو عليه عند العرب، وهو يقدم صفات المجتمع الأمومي الذي تكون فيه الوحدة هي الأسرة، وهم لا يقومون بتحركات كبيرة مشتركة كالقبائل العربية في كردفان أو البطانة، ولكنهم يتجولون في مجموعات أسرية صغيرة بحثاً عن الكلأ.. كما أن عاداتهم مغايرة للقانون القبلي العربي، بالرغم من أنهم يقتربون الآن أكثر نحو هذا الاتجاه. ولم يكن البجة يدفعون "الدية" أبداً حتى وقت قريب، ويفضلون الانتقام الشخصي الأكثر وحشية، ويفضل الآخرون (ص٢٠) التسوية بطريقة ما.

إن إسلام أغلبية البجة إسلام سطحي، فلا أحد منهم يُعدُّ تقياً بشكل واضح، ولو أنهم مثل معظم السودانيين يؤمنون بالخرافة ويصدقون بسرعة أي فكي ينال وسطهم سمعة بأنه يمتلك البركة. إن مثل هؤلاء الرجال-برغم أنهم قد يكونون غرباء-يتم الاعتراف بهم كوسطاء لحل الخلافات. ولم تتعصب دينياً سوى أقسام من الهدندوة خلال فترة المهدية، بالرغم من أن االدين لا يلعب سوي دور صغير في ولائهم.. ولا يهتم معظم البدو بالطوائف الدينية التي تلعب دوراً أساسياً في الحياة الدينية للسكان المستقرين في السودان، ولم يتأثروا إلا قليلاً بفقراء فترة الفونج. سبنسر تريمنجهام: الإسلام في السودان، ترجمة فؤاد محمد عكود، المشروع القومي للترجمة (٢٣٤)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١م،ص:١٩-٢١.

يوجدون على الحدود المصرية وآخرون؛ مما يعيشون في موانئ البحر الأحمر اعتنقوا أيضاً المسيحية، لكن المسيحية لم تكن هنا مجذرة كما كان الحال في وادي النيل[٣٢]لم يتأثر البجة كثيراً بالتعاليم المسيحية التي كانت سائدة في الممالك المجاورة لهم، في مصر ودنقلة وسوبا والحبشة، وظلوا وثنيين يعبدون الظواهر الطبيعية والكواكب، حتى ظهر الإسلام فاعتنقوه. وقد تأثرت قلة من طبقتهم الحاكمة بالمسيحية على المذهب اليعقوبي، وسموا بالخوارج[٣٣]. أما صلة سواكن بالعرب فقد بدأت قبل الإسلام. إذ كانت بلاد البجا تعتبر امتداداً طبيعياً وجزءاً مكملاً لبلاد الحبشة، التي كانت لها علاقات وطيدة بالجزيرة العربية، وهاجرت إليها قبائل عربية واستوطنتها منذ أقدم العصور[٣٤]. وقد نالت بلاد البجا حظها الكبير من تلك الهجرات العربية. فبالإضافة إلى موقعها التجاري المميَّز الرابط بين بلاد السودان والمحيط الهندي، فإن ظهور المعادن النفيسة–كالذهب والفضة والزمرد–كان كافياً لجذب القبائل العربية التي لا يفصل بينها وبين سواكن سوي البحر الأحمر. ويذكر ابن حوقل أن مجموعات من قبائل حمير العربية في جنوب الجزيرة العربية هاجرت إلى أرض المعدن بلاد البجا منذ القرن السادس الميلادي، أي قبل ظهور الدعوة الإسلامية، وسكنت هذه القبائل مع قبائل البجا في منطقة عتباري[٣٥].

وسواكن من أهم موانئ البحر الأحمر، وهي ميناء معمور ويقطن فيها مجموعة كبيرة من أهل جدة والهنود واليمنيين والحضارمة والأحباش الذين ترتبط مصالحهم بالتجارة في موانئ البحر الأحمر المختلفة على الساحلين الشرقي والغربي أو حتى مع عدن وبومباي وممباسا والأراضي الواقعة خلف هذه الموانئ التي تضم قبائل ومجموعات بدوية متمايزة للغاية ومتباينة فيما بينها عرقياً ولغوياً ومن ناحية العادات،

٣٢يوسف فضل حسن: انتشار الإسلام في السودان الشرقي الإسلام في إفريقيا الاستوائية، تحرير آي. إم. لويس، ترجمة وتقديم عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المركز القومي للترجمة، المشروع القومي للترجمة، (١٥٢١)، القاهرة، ٢٠١٠م، ص–ص:٢٢١–٢٢٢، وللمزيد ، نظر:ص: ٢٢١–٢٣٤.

٣٣وكانت منطقة البجا قبل الإسلام قد تأثرت بالمسيحية إلى حد ما، واعتنق بعض البجا المسيحية على المذهب اليعقوبي التابع لكنيسة الإسكندرية؛ وعرفوا بالخوارج نظراً لمخالفتهم الديانة التقليدية الوثنية الموروثة لديهم، كما كانت الفئة المسيحية على صلة بالكنيسة النوبية في شمال السودان، ولهذا لما جاء المسلمون فاتحين لمصر بقيادة عمرو بن العاص عام ٢١هـ/٦٤١م تعاطف النوبة والبجا مع أقباط مصر، وأعانوهم على صدَّ الفاتحين ولكن دون جدوى. وقد تمثَّل ذلك التعاون أحياناً في شكل هجمات من جانب النوبة والبجا على صعيد مصر كلما أحسّوا ضعفاً في حكوماتها. انظر: عبد الباقي محمد أحمد كبير: سواكن منذ فجر الإسلام حتى العصر المملوكي، مرجع سابق، ص: ٨٧.

٣٤السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م–١٩٢٣م)، مرجع سابق، ص: ١٧٣.

٣٥وكان لاستقرار هذه القبائل العربية الحميرية في بلاد البجا أثره الفاعل في المنطقة، فقد استطاعوا أن يضعوا نهاية للحروب الدائرة بين البجا والنوبة، والتي استمرت قروناً عدة. كما تصاهر الحميريون مع البجا، وعن طريق هذه المصاهرة وصل أبناء الحميريين إلى سُدَّة الحكم عن طريق توريث العرش لابن البنت، وذا النظام المتّبع لدى البجا، وبذلك تكوَّنت مع مرور الوقت طبقة أرستقراطية جديدة آباؤهم من العرب، وأمهاتهم من البجا. كما كان الوجود النوبي والبجاوي والحبشي في الجزيرة العربية قديماً.. كما كان لمكة المكرمة صلات تجارية قوية وواسعة مع الساحل الغربي حيث بلاد البجا، فقد كانت بلاد الحبشة عامة متجراً لقريش، يجدون فيه الرزق والأمن، وقد قصد ساحل البحر الأحمر الغربي كبار تجار مكة قبل الإسلام لشراء ما يحتاجونه من سلع تجارية متوفَّرة في المنطقة كالعبيد وريش النعام والجلود والأغنام والذهب، وغيرها من السلع ليبيعوها في منطقة جدة، ومنها إلى موانئ عيذاب وسواكن وباضع. وكان الطريق التجاري بالبحر الأحمر أقرب الطرق إلى سواحل الجزيرة العربية، وأكثرها أمناً..وقد أورد أبو فرج الأصفهاني أن عمارة بن الوليد وعمرو بن العاص كانا تاجرين، وقد خرجا إلى النجاشي لمعرفتهما وخبرتهما بهذه المنطقة. كل هذه الأخبار تؤكد متانة العلاقات بين الحجاز وبلاد البجا وخاصة موانئها الشاطئية. انظر: عبد الباقي محمد أحمد كبير: المرجع السابق، ص: ٨٤–٨٦.

غير أن هؤلاء جميعاً لديهم أجدادهم الذين عاشوا في سواكن فترات ممتدة. وقد كانت سواكن وما تزال محطة مهمة أمام التجار الحميريين والمصريين والسبأيين واليونانيين والرومان والأكسوميين والعرب على امتداد القرون الماضية[٣٦].

أما فيما يتعلق بمدينة سواكن ودورها في صدر الإسلام[٣٧]، فقد استقبلت في اللاحق من الحقب، وفي أعقاب هجرة الأبكار من المؤمنين إلى بلاد الحبشة، أربعة من الصحابة وزراريهم، والذين كان مقدراً لهم الاشتغال بالدعوة ونشر قيم الإسلام السمحاء[٣٨] وتأتي أهمية مدينة سواكن والسعي لدراستها تاريخياً ليس بوصفها أول ميناء في تاريخ السودان الحديث فحسب، بل لعراقتها باعتبارها من أقدم المدن الإسلامية بالشرق، والتي تردّد ذكر اسمها في كتابات السابقين من المؤرخين المسلمين وغيرهم من الأوروبيين الرحالة، الذين قاموا بزيارتها أو الوقوف عندها، فضلاً عن ذيوع صيتها اللامتناهي إلى بلدان غرب إفريقيا، مركزاً دعوياً مرتبطاً بالحجيج وشعيرة الحج ورحلاتهالسنوية ذهاباً وإياباً إلى بلاد الحجاز. وذيوع اسمها مرادف لما حولها من قبيل زيلع وباضع ومصوع وهرر ومقديشيو، وغيرها من المدن والمراكز الساحلية[٣٩].

واشتهرت سواكن بأن لها ميناء تجاري مهم، وكانت تأتيه البضائع من الهند والشرق الأقصى. وعن طريق هذا الميناء كانت تخرج الحاصلات وصادرات السودان إلى الحجاز والهند وأوروبا ومصر، كما

---

٣٦ J. W. Crowfoot, Some Red Sea Ports in the Anglo-Egyptian Sudan, The Geographical Journal, Vol. 37, No. 5 (May, 1911), pp. 528.

٣٧تعتبر سواكن من مدن السودان التاريخية. وقد كان لموقعها الجغرافي المميَّز أثر في جذب أساطيل الجيوش والتجار إليها منذ العصور القديمة. وعندما ظهر الإسلام في جزيرة العرب استقبلت أرض الحبشة والبجا أول هجرة إسلامية بعثها الرسول (صلي). وقد كان ذلك مؤشراً واضحاً لأهمية المنطقة وشعوبها الناشطة سياسياً واقتصادياً. ومن هنا جاء اهتمام الخلفاء الراشدين بإفريقيا عامة، ففتحت مصر عام ٢١هـ/٦٤١م، ثم توغّل العرب المسلمون جنوباً لفتح بلاد النوبة والبجة عام ٣١هـ/٦٥١م. ثم جاءت اتفاقية البقط في ذلك التاريخ لتعطي العرب حرية الانتقال والهجرة إلى أرض البجة؛ حيث معادن الذهب والزمرُّد، فهاجرت قبائل عربية كبيرة من جهينة وربيعة وبني كاهل، واستقرت بأرض البجة، خاصة مدنها التجارية مثل سواكن وعيذاب. لكل ذلك ارتبط تاريخ سواكن في صدر الإسلام بتاريخ الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ودمشق وبغداد والقاهرة. أصبحت سواكن الميناء الذي يستقبل التجار والحجاج إلى بيت الله الحرام، ومنها ترسل الغلال إلى الحجاز. ونظراً لأهميتها الاقتصادية كانت تتبع في بعض الأحيان لأمير مكة، فجذبت الكثير من الرّحّالة العرب، الذين زاروها وكتبوا عنها خاصة في العصر العباسي. انظر: عبد الباقي محمد أحمد كبير: سواكن منذ فجر الإسلام حتى العصر المملوكي، ص٨١.

٣٨انظر: سيف الإسلام بدوي بشير: سواكن الملاحة وتداعيات الحركة التجارية في البحر الأحمر من القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي، مرجع سابق، ص١١٩. وقد خلصت الدراسة من خلال الإدارات التاريخية المتاحة إبراز الدور الذي قامت به مدينة سواكن عبر تاريخها في المجالية الملاحي والتجاري. وارتباط المدينة بمواسم الحج والتفويج السنوي للحجيج المحلي والقادم من دول الجوار، أضفى على المدينة أهمية متعاظمة، لما لها من التميُّز الملموس والمتنامي دينياً، والذي امتد إلى السنوات المبكرة من القرن التاسع عشر. انظر المرجع السابق، ص١٣٤.

٣٩انظر: سيف الإسلام بدوي بشير: سواكن الملاحة وتداعيات الحركة التجارية في البحر الأحمر من القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي، مرجع سابق، ص١١٥.

كانت بسواكن أسواق الرقيق[40] واشتهرت أيضا باللؤلؤ وتجارته[41]. وأنها لموقعها المتميّز، كانت مركزاً تجارياً حيوياً لحركة البضائع التجارية المستجلبة للداخل، وتلك الواردة من بلاد الحبشة على العهد البطلمي، والمتمثّلة في العاج والرقيق والذهب وريش النعام وبيضه. ثم تضاءلت أهميتها في العصر الروماني، بفعل قبائل البجة ووقوفهم سداً منيعاً حال بينهم ومحاولاتهم المتكرِّرة للسيطرة عليها والاستيلاء على مناجم الذهب والزمرد بوادي العلاقي[42].

وعن أهمية سواكن التجارية إبان العصر الإسلامي[43] يشير القلقشندي إلى أنها كانت مستقراً للتجار العرب وأرباب الأعمال[44]، وهو ما يؤكد أنها صارت مركزاً تجارياً مهماً[45]وإلى جانب أهمية سواكن التجارية، فإن لها أهمية أخرى أعظم حيث كانت سواكن مقصد الحجاج وقوافل الأحج القادمة من بلاد السودان الغربي والأوسط إلى بلاد الحجاز[46] باعتبار أن ميناء هذه الجزيرة يُعد من أقرب الموانئ لساحل

٤٠كانت سواكن من ضمن مراكز العرب الرائجة الارتباط اقتصادياً بالرق وتجارته، والتي شملت إلى جانبها كلاً من دهلك وزيلع وبربرة ومقديشيو وكلوة وزنزبار. وكانت تجارته قد شهدت تطوُّراً واتساعاً في حوالي منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، رغم الخطوات المقدَّرة التي جري اتخاذها تدريجياً، لمحاصرة الرق والقضاء على تجارته نهائياً، في غضون السنوات المتأخرة من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين. وكان الغالب على الرقيق الإثيوبي وتسويقه، أن يتم تصديره إلى مصر والبلاط العثماني بإستنبول، ومن ثم الدفع بالمتبقّي منه براً إلى سواكن وعبرها بحراً إلى الحجاز. ومعظم الوكلاء المتعاملين في الرق تجارة وتسويقاً من الجبرتة، إلى جانب اليمنيين والصوماليين والمصريين سماسرة ووسطاء تجاريين. وكانت مدينة القلابات علاوة على مرفأ سواكن على البحر الأحمر حتى السنوات المتأخرة من القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر، تستخدم معابر لتصدير الرقيق ضمن غيرها من العروض التجارية. ويستشفّ من بعض المصادر المتواترة في الربع الأول من العام ١٨٨٥م ما يفيد بأن أغلب الواردات التجارية إلى الأقاليم الداخلية في إثيوبيا كانت تجري عبر دهلك وسواكن والسويس وعدن وغيرها من المناطق والبلدان، من قبيل جدة وعصب وبلاد الهند. انظر: المرجع السابق: ص:١٢٦-١٢٧.

٤١نهي حمدنا الله مصطفي حسن: البجة وعلاقاتهم بمصر الإسلامية، المرجع السابق، ص٩٤-٩٥.

٤٢انظر: سيف الإسلام بدوي بشير: سواكن الملاحة وتداعيات الحركة التجارية في البحر الأحمر من القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي، مرجع سابق، ص:١١٨-١١٩.

٤٣انظر: عبد الباقي محمد أحمد كبير: سواكن منذ فجر الإسلام حتى العصر المملوكي، مرجع سابق، ص-ص٨١-١١٢.

٤٤القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سابق، جـ٥، ص٢٧٤.

٤٥والراجح أن سواكن المدينة والميناء، شأنها شأن رصيفتها بربرة ومقديشيو، كانت تُعَدُّ سوقاً رائجاً للعروض التجارية المربحة والمستجلبة من بلاد اليونان وإيطاليا والشام. ولما كانت سواكن بموقعها الملائم جغرافياً، تشكَّل منعطفاً حيوياً للتبادل التجاري على البحر الأحمر، فقد قامت حلقة للوصل بين أقاليم الوفرة بالداخل، وحركة ميناء مصوّع الملاحي تجارياً؛ الأمر الذي انعكس إقبالاً عليها من جانب التجار ووكالتهم، من مختلف الجنسيات والأعراق والبلدان. انظر: سيف الإسلام بدوي بشير: سواكن الملاحة وتداعيات الحركة التجارية في البحر الأحمر من القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي، مرجع سابق، ص:١٢٧.

٤٦انظر رحلة الحج وطرقاته: أ-طرق غرب الصحراء الكبرى والسودان. ب-طرق الصحراء الكبرى الوسطى والشرقية. جـ-الطرق المؤدية لبلاد النيل. كان أمام الحجاج القادمين إلى بلاد الهوسا من الغرب خياران، يتوقف كل منهما على إمكاناتهم المادية للسفر، إما عن طريق الصحراء الكبرى، أو للسفر شرقاً باتجاه بلاد النيل. وفي حين كانت طريق الصحراء الكبرى الطريق الممكنة الوحيدة بالنسبة للمغاربة الفقراء، الذي كان السفر بالبحر غير وارد بالنسبة لهم، كانت هناك للسودانيين الفقراء طريق بديلة عبر بلاد النيل، ويرجح أن تكون هذه الطريق قد جذبت معظم المسافرين سيراً على الأقدام من طرقات الصحراء خلال القرن التاسع عشر. يعود تاريخ استخدام الطريق البرية على طول الحزام السوداني إلى النيل والبحر الأحمر والحجاز، على الأرجح، إلى فترة سابقة للقرن التاسع عشر، وثمة عوامل جغرافية تدفع بطبيعة الحال إلى اتخاذها. فالمناخ والحياة النباتية لا تناسبها الاختلافات المناخية الحادة، إضافة إلى جفاف الصحراء الكبرى، كما أن اتساع رُقعة المناطق المأهولة، يجعل سفر الحجاج أفضل اقتصادياً بالنسبة للذين لا يملكون سوي وسائل عيش زهيدة. غير أن الاستنتاج المبني على

الحجاز، وخاصة من جدة الذي يُعد الميناء الرئيسي لمكة[٤٧]. وقد زادت أهمية سواكن خاصة بعد تدمير المماليك لميناء عيذاب، وهو ما جعل ميناء سواكن ينال مكانة ميناء عيذاب بعد ذلك[٤٨]، وحتى بعد إنشاء ميناء بورتسودان ١٩٠٩م –بعد عجز سواكن عن أن تفي بدورها الملاحي–وتحول معظم الأعمال المهمة في ميناء سواكن إلى حيث ميناء بورتسودان، فتضاءلت سواكن إلى دور تقليدي متواضع تمثّل في نقل الحجيج في رحلتي الذهاب والإياب السنوية صوب جدة ومكة والمدينة المنورة[٤٩].

وثمة رواياتٌ عن خرافة ذائعة بين أهل سواكن، حول أصل جزيرتهم وتأسيسها، إذ تقول: إنه كان لأحد ملوك الحبشة القدامى علاقة ودٍ بأحد أباطرة الرومان، فأرسل ملك الأحباش إليه سبعاً من الأبكار هديةً، فأقلعن في زورق، ثم أبحرن حتى بلغن أرض سواكن. وكان بها آنذاك سبعة من الجن، فتصدوا للفتيات، ومنعوهن من الرحيل عن أرضهم[٥٠]. ثم تزوج هؤلاء الجن بالفتيات السبع، وأنجبوا منهن أبناء عُمرت بهم المدينة، ومن ثم سميت بعدئذ باسم "سبع جن"، ثم حُرف الاسم إلى "سواجن"، ثم صار تعرف باسم "سواكن"[٥١]. وفي رأي البعض أن قصة الجواري السبع كانت مع خسرو ملك العجم[٥٢]. أما الشاطر بصيلي عبد الجليل، فيما يورد عنه محمد صالح ضرار، فيري "أن كلمة سواكن هندية وتعريبها المدينة

العوامل الجغرافية وحدها–مثل أن يقال إن تلك الطريق قد استخدمها الحجاج منذ دخول الإسلام إلى إفريقيا الغربية (حوالي سنة ١١٠٠م) –يصعب إثباته. عن العقبة الكبرى هي من دون شك معرفتنا المحدودة للتطورات التاريخية، ولحركة تنقل السكان في المنطقة الواقعة بين بحيرة تشاد والنيل في الأزمنة السابقة. فلو توفرت المعلومات، لأصبح بالإمكان المغامرة بتقديم بعض الأفكار. صحيح أن دخول الإسلام إلى المنطقة الواقعة بين بحيرة تشاد والنيل هو حدث سابق، لكن تلك المنطقة لم تتخذ طابعاً إسلامياً مُسيطراً إلا في القرن السادس عشر. لقد أدىانهيار المسيحية في بلاد النوبة وصعود مملكة الفونج في سنّار ١٥٠٥م إي إقامة مملكة إسلامية سوداء في أقصي الطرف الشرقي من الحزام السوداني. لقد طوّرت هذه المملكة علاقات مع العالم الإسلامي في الشرق الأوسط، وزارها علماء متجوّلون جاءت بهم قوافل الحج، وأصبحت، بفضل موقعها الجغرافي الوسيط، صلة وصل بين الشرق الأوسط وبين شعوب دار فور، ووداي وباغيرمي. وظهرت في تلك البلدان أيضاً سلالات إسلامية خلال القرن التالي. وتشير تقاليد هذه البلدان التاريخية إلى تأثيرات إسلامية قوية في ما يخصّ وادای وباغيرمي وإلى تأثيرات نيليّة حيث لعب الحج دوراً كبيراً في أساطير تأسيسها.. ربما كان حجاج دارفور أوّل من بدأ باستخدام طريق النيل، إذ لم يكن أمام الحجاج العاجزين عن تأمين تكاليف الرحلة في الصحراء خيار آخر سوى السعي وراء إحسان وحماية الشعوب الإسلامية، والمدارس القرآنية المنتشرة على طول نهر النيل، ولعل هذا ما جذب تدريجياً الحجاج من البلدان الواقعة بعيداً على الغرب من دار فور. وقد استمر الأمر كذلك خلال القرن الثامن عشر، وفي مطلع القرن التاسع عشر كانت طريق الحج عبر النيل بديلاً جاهزاً عن الصحراء الكبرى، كما كانت تجتذب الحجاج في أقصي الغرب مثل فوتا تورو. (ص٢١٣) انظر: عمر النقّر: تقليد زيارة الأماكن المقدسة في إفريقيا الغربية دراسة تاريخية تعود بنوع خاص إلى القرن التاسع عشر، ترجمة أبوبكر أحمد باقادر، الرحلات المكية، دار كنوز المعرفة، الطبعة الأولي، ٢٠١١م، ص١٩٠، –٢١٣.

٤٧انظر ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص١٦٤، بوركهارت: رحلان بوركهارت، ص٣٢٨ وما بعدها.

٤٨الحسن الوزان: وصف إفريقيا، تحقيق: عبد الرحمن حميدة، هيئة الكتاب، ٢٠٠٥م، ص٥٩٥.

٤٩انظر: سيف الإسلام بدوي بشير: سواكن الملاحة وتداعيات الحركة التجارية في البحر الأحمر من القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي، مرجع سابق، ص١١٨.

٥٠كركوكي: رحلة مصر والسودان، مرجع سابق، ص٣٥١.

٥١المرجع السابق، ص٣٥١.

٥٢محمد صالح ضرار: تاريخ السودان (البحر الأحمر – إقليم البجة)، منشورات دار الحياة، بيروت، دون تاريخ، ص٩٣

البيضاء" أو مدينة الأمان أو بر السلامة، لأنها أول ميناء تصل إليها السفن من الشرق الأقصى[٥٣]. وكانت سواكن كغيرها من مدن الساحل الغربي لبحر القلزم، تتبع مملكة البجة الوثنية قبل الإسلام.

ولم يكن بحر القلزم قط عائقا أمام حركة التبادل التجاري بين العرب والبجاة، إذ كانت التجارة العربية مع الساحل الإفريقي مزدهرة قبل الإسلام، فكان العرب يعتادون ركوب البحر إلى سواكن، وغيرها من الموانئ الأفريقية كباضع ومصوع ودهلك، نظراً لأهمية موقعها التجاري[٥٤]. كما أن بحر القلزم لعب دوراً مهماً في تسهيل حركة قوافل الحج القادمة من الساحل الإفريقي عبر سواكن، وغيره من الموانئ الأخرى على هذا الساحل مثل عيذاب[٥٥]. وتتحدث المصادر عن قدوم جماعات من حضرموت قادمين من بلاد اليمن إلى سواكن سنة ٧٣هـ/٦٩٢م في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي[٥٦]. ثم أنهم استقروا في سواكن، واختلطوا بالبجاة، ويعتقد أنهم الذين عرفوا بعد ذلك باسم "الحدارب"[٥٧]. ثم صارت سواكن بعدئذ معبراً رئيساً لهجرات القبائل العربية إلى بلاد البجة وسودان وادي النيل[٥٨]. ومعنى ذلك من ناحية أخرى أن سواكن عاصرت باضع الميناء العربي الإسلامي الخالص، وأنها كانت تقوم بوظيفتها، كميناء في خدمة التجارة والملاحة التي ترد عليها من طرق تنساب من الداخل وتربط بينها وبين بعض مراكز التجارة على النيل. ويذكر المقريزي "أن هناك طريقاً من النيل إلى سواكن وباضع ودهلك، وغيرها من جزائر البحر الأحمر، نجا منه بنو أمية الهاربون عندما جدَّ اتباع العباسيين في ملاحقتهم[٥٩].

٥٣عمر عبد الله حميدة: سواكن في رحلات بوركهارت، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، سلسلة ندوات التنوير (٩)، مركز التنوير المعرفي، سلسلة الـ (١٠٠) كتاب في الثقافة السودانية، كتاب الخرطوم الجديدة (٧٨)، تحرير منتصر أحمد النور، الخرطوم، الطبعة الأولي، ٢٠١٣م، ص١٠٢.

٥٤عطية القوصي: تاريخ ميناء باضع في القرون الخمسة الأولى للإسلام، مرجع سابق، ص٥.

٥٥عيذاب: قال المقدسي: "وعيذاب مدينة قبالة جدة يحرم منها من قصد من ذلك الوجه..." (المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٩م، ص٧٨، ويقول علي باشا مبارك: "وهي بليدة على شاطئ بحر جدة، يعدي منها الركب المصري المتوجه للحجاز على طريق قوص في ليلة واحدة في أغلب الأوقات...وهي من أجل مراسي الدنيا، بسبب أن مراكب اليمن والهند تحط فيها ويقلع منها، زيادة على مراكب الصادرين والواردين.." (الخطط التوفيقية، جـ١٤، هيئة الكتاب، ٢٠٠٨م، ص١٧٠

٥٦عطية القوصي: المرجع السابق، ص٥.

٥٧المرجع السابق، ص٤ -٥.

٥٨عبد المجيد عابدين: قبائل من السودان الأوسط، ص: ١٢.

٥٩السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م-١٩٢٣م)، مرجع سابق، ص: ١٧٤. وليس غريباً أن يذكر المقريزي كل تلك الموانئ في موضع واحد، لأنه يعني بذلك أن المواقع التي مارس فيها العرب نشاطهم التجاري، كانت على صلة وثيقة بوادي النيل في ظهيرها الإفريقي، ولما كانت سواكن قد عاصرت باضع خلال خمسة قرون على الأقل وعيذاب من بعدها، فإن ذلك يعني أنها عاشت فترة طويلة تمتد من حوالي القرن الثامن الميلادي، إلى القرن التاسع عشر الميلادي. ويبدو أن باضع ثم عيذاب، كانت شهرتهما وطبيعة خدماتهما للتجارة والملاحة تقلل من قيمة سواكن وتحجبها، فلم يكن لها ذكر، ولنضرب بذلك بعدم ورود اسمها في عقد الأمان الذي أعطاه عبد الله بن الجهم للملك كنون بن عبد العزيز، عظيم البجا، عام ٨٣١م. وتؤكد جميع المراجع العربية القديمة أن سواكن وظهيرها كان يستقبل أفواجاً من الأسر العربية خلال القرون (التاسع والعاشر والحادي عشر الميلادية)، وكانت تلك العناصر تصل إليها عبر البحر من اليابس المقابل مباشرة؛ طلباً للاستقرار في الوطن الجديد. انظر: المرجع السابق، ص: ١٧٥.

وكُشف غربي سواكن عن شواهد عربية تؤرخ للقرن ٢هـ- ٨م[٦٠]. وهو ما يؤكد قدم الوجود العربي هناك[٦١]. وقد شاهد بعض الرحالة ممن ارتحل إليها، كابن بطوطة، جماعات من الجهنيين، وكذلك جماعات من الكواهل، وبطون عربية أخرى[٦٢]. ويعتقد أن العرب صارت لهم السيادة على سواكن منذ حوالي سنة ٢٥٥هـ- ٨٦٩م، بعد "حملة العُمرى" على أرض البجة[٦٣]. وفى سنة ٢٧٠هـ-٨٨٣م، هاجرت "قبيلة الأرتيقا" العربية من حضرموت إلى سواكن، ولم يكن لهم اهتمام سوى بالتجارة عبر موانئ بحر القلزم، ثم تصاهروا مع البجاة[٦٤].

ويعتقد أن جماعات من عرب جهينة استقرت في سواكن منذ أواخر القرن ٧هـ-١٣م[٦٥]. وكان ملوك البجة إبان قدوم قبائل العرب بعد فتح مصر، يُعرفون باسم "الحداربة"، أو"الحدارب"، ومفردها: "الحدربى"[٦٦]. وتذكرهم بعض المصادر باسم "الحدارية"[٦٧]. وتشير إليهم مصادر أخرى باسم "الحدرات"[٦٨]. وأطلق عليهم ابن حوقل: "الحدربية"[٦٩]. واسم "الحداربة" مأخوذ في الأصل من كلمة "الحضارمة"، أو "حضرموت"[٧٠]، وهو ما يشير لأصولهم العربية، وأنهم جاءوا من حضرموت، جنوبي بلاد العرب Arabia[٧١].

٦٠محمد إبراهيم كريم: أثر العرب في بلاد البجة وجزر دهلك على انتشار الإسلام، ص: ٦٤.

٦١وهذا على غير ما أثبته وأكده أحمد إلياس حسين "وأن الحداربة قبيلة (بجاوية/حامية/سودانية، كما وصفتها المصادر العربية المبكرة والمتأخرة" انظر: أحمد إلياس حسين: مدينة سواكن وقبيلة الحداربة في المصادر العربية حتى القرن التاسع الهجري/الرابع عشر الميلادي، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، مرجع سابق، ص: ٧٥.

٦٢رجب عبد الحليم: ميناء عيذاب، ص: ٢٤٢.

٦٣ابن بطوطة: تحفة النظار، جـ١، ص: ٢٥٥.

٦٤نهى حمدنا الله مصطفى: البجة وعلاقتهم بالدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص:٩٥.

٦٥المرجع السابق، ص:٩٥.

٦٦ابن بطوطة: تُحفة النظار، ص٤٩.

٦٧المسعودي: مروج الذهب، جـ٢، ص١٦.

٦٨تاريخ اليعقوبي: جـ١، ص١٦٥.

٦٩ابن حوقل: صورة الأرض، ص٥٨.

٧٠حضرموت: يقال إن حضرموت لم يكن يحضر حرباً إلا كثر فيها القتل والدماء، ولذا كان كل من يراه يقول: حضرموت، أي: "حضر الموت" مع قدومه (ابن حجر: نزهة الألباب في الألقاب، ص:١٠٠). وحسب بوركهارت Burkhardt، فإن شعب حضرموت اشتهر بميله إلى الهجرة وكثرة الارتحال، وأقاموا لأنفسهم مستوطنات فى مدن الحجاز اليمن. وظل الحداربة يحكمون بلاد البجة مدة طويلة حتى أيام "رحلة بوركهارت"، الذي ذكر أن حاكم سواكن في أيامه كان يلقب "أمير الحداربة". وللمزيد عن "رواية بوركهارت"، انظر:

Macmichael: A History of the Arabs in the Sudan, Volume I, P. 346

٧١ابن الأثير: اللباب، جـ١، ص٤٣١، و انظر أيضا:

John Meddileton (& Others): Encyclopedia of Africa South of the Sahara, Volume I, Macmillan Library Reference USA, New York, 1997, P. 66.

ويتكون عرب سواكن والدائرة المحيطة بها في قطر قرابة ١٠٠ ميل في شبه دائرة من القبائل التالية: أهل سواكن أو السواكنيين، والعمارنة، والأشراف والبشارية وبني عامر والهدندوة Hadendosa والأرتيقا Artegas[٧٢].

وعلى هذا اهتم العرب بالموانئ الإفريقية التي تقع على بحر القلزم، ومن ثم هاجروا إليها لتأمين مصالحهم التجارية، وليكون للعرب قاعدة ترسوا فيها مراكبهم، لمقاومة القراصنة، الذين كانوا يشكلون تهديدا خطيرا للتجارة العربية في بحر القلزم، وكان أهم هذه الموانئ: سواكن، وعيذاب، وباضع، ومصوع. وكانت غاية العرب من وجودهم على الساحل الإفريقي نشر الإسلام والعروبة جنوبي الصحراء [٧٣].

وإلى جانب جماعات الحدارية، كانت قبائلُ البجاة تتكون من طوائف أخرى، منها: "الزنافج، ورسفة، والعماعر،[٧٤]. وعرب ربيعة..إلخ "[٧٥]. وقال اليعقوبي عن الزنافج: "ومن العلاقي إلى أرض البجة..خمس وعشرون مرحلة، والمدينة التي يسكنها ملك الزنافجة يقال لها: بلين، وربما صار المسلمون إليها للتجارات.." [٧٦]. وهذه رواية تؤكد النشاط التجاري للعرب في بلاد البجة، ومنها سواكن، وأنهم كانوا يعتادون ركوب البحر للتجارة.

فساهمت سواكن–إلى جانب موانئ البحر الأحمر الأخرى مثل عدن وجدة وعيذاب–بدور بارز في ربط الطرق البحرية بين المحيط الهندي والبحر المتوسط، وتزويدها بسلع إفريقيا الداخلية، إلى جانب ما تمتعت به مناطق البجا من سلع مهمة لتجارة المنطقة مثل المعادن والأبل[٧٧]. كما ارتبطت سواكن أيضاً بالطرق الداخلية المتّجهة إلى الشمال نحو القاهرة، وإلى الشمال الغربي نحو قوص، وإلى الغرب نحو أبو حمد، وإلى الجنوب الغربي نحو كسلا[٧٨].

وبفعل ما شهدته سواكن، –في العصر الحديث–من حركة تجارية رائجة ومتنامية، محلياً وإقليمياً ودولياً، أصبحت المدينة الميناء، مقصداً لإقامة واستقرار مختلف الجنسيات من التجار ووكلائهم، والذين كان

---

٧٢ Donald A. Cameron, On the Tribes of the Eastern Soudan, The Journal of the Anthropological Institute of Great Britain and Ireland, Vol. 16(1887), p. 287.

٧٣عطية القوصى: ميناء باضع، ص٦.

٧٤عن مملكة بني عامر وخضوعها للفونج وسلطة سنار انظر: السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م–١٩٢٣م)، مرجع سابق، ص١٧٢.

٧٥ابن حوقل: صورة الأرض، ص٥٨.

٧٦نوال على محمد عبد العزيز: العرب في شرق إفريقيا من القرن ٨م وحتى تدخل البرتغال في القرن ١٥م، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، دون تاريخ، ص٤٩.

٧٧وقال الإدريسي (٤٩٣هـ–٥٥٩هـ/١١٠٠–١١٦٦م) عن مدينة بختة من بلاد البجة: ".. وحولها قوم ينتجون الجمال ومنها معايشهم، وهي أكثر مكاسبهم. وإلى هذه القرية تنسب الجمال البختية، وليس يوجد على وجه الأرض جمال أحسن منها ولا أصبر على السير ولا أسرع خطئً، وهي بديار مصر معروفة بذلك". انظر: أحمد إلياس حسين: مدينة سواكن وقبيلة الحداربة في المصادر العربية حتى القرن التاسع الهجري/الرابع عشر الميلادي، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، ص٦٣.

٧٨انظر: أحمد إلياس حسين: مدينة سواكن وقبيلة الحداربة في المصادر العربية، مرجع سابق، ص٥٧.

معظمهم من الهنود والمصريين والحجازيين والألمان والفرنسيين والإيطاليين. وقد انعكست تلك الوضعية التجارية، على العملات النقدية المتداولة كوسائط للتبادل بالمنطقة تجارياً[٧٩].

ثانياً – استقرار أشراف مكة بسواكن:

ارتبط أهل سواكن منذ أقدم العصور ببلاد الجزيرة العربية[٨٠] وتحديداً سكان مكة المكرمة وما جاورها، وبلاد الحجاز بصفة عامة، خاصة بعد الإسلام. ولذلك عاشت في جزيرة سواكن الجماعات العربية من "الأشراف"، مثلما كانت ترتبط بالحدارية العرب، وهو ما يشير إلى أصالة الوجود العربي بها منذ أقدم العصور. وحسب بعض الأنساب، فإن أحد الأشراف يدعى "محمد العلوي"، جاء جزيرة سواكن قادماً من مكة المكرمة، وهو يُعد أول الأشراف ممن استقروا بسواكن [٨١]. ثم تزوج هذا الشريف إحدى نسائها، وحسب روايات قبيلة الهدندوة العربية، فإن ابنة هذا الشريف تزوجت محمد المبارك، وينتسب له جماعات هذه القبيلة [٨٢]. وفي كتابه مسالك الأبصار ذكر ابن فضل الله العمري عن سواكن: "... وأما سواكن ففيها الشريف زيد بن ابي نمي الحسني وهو في طاعة صاحب مصر". وقد أورد السخاوي ٨٣١-٩٠٢هـ/١٤٢٨-١٤٩٧م كثيراً من المعلومات عن التجار في مدينة سواكن، واتضح أن أولئك التجار لم ينحصروا فقط بالاشتغال بمهنتهم، بل كانوا يساهمون في المناشط الأخرى. وكان بين أولئك التجار شخصيات اشتهرت لمكانتها العلمية في مدارس العالم الإسلامية الكبرى في مكة والقاهرة ودمشق. وقد زار بعضهم سواكن من أجل التجارة، واستقر فيها لبعض الوقت، ومكث بعضهم لسنوات طويلة وتزوج وأنجب في سواكن، بل وتوفي بعضهم ودفن بها. ولم ينحصر نشاط أولئك العلماء في مدينة سواكن فقط، بل امتد إلى مناطق الداخل[٨٣].

وقد حكم الأشراف جزيرة سواكن لمدة طويلة، ونعرف من حكامها عددا؛ ممن ورد ذكرهم في المصادر التاريخية، ولعل منهم "الشريف علم الدين"، وهو الذى تصفه المصادر بأنه "صاحب سواكن"، أو "أمير سواكن". وقد عاصر أيام السلطان الظاهر بيبرس. وهو الذي أساء معاملة التجار، الذين كانوا يأتون بتجارتهم إلى ميناء سواكن، وهو ما أسخط السلطان عليه، ثم سقطت سواكن في أيامه تحت حكم المماليك، كما ارتبط هذا الشريف أيضا بالصراع بين جهينة ورفاعة بسواكن ٦٨٠هـ/١٢٨١م[٨٤].

٧٩انظر: سيف الإسلام بدوي بشير: سواكن الملاحة وتداعيات الحركة التجارية في البحر الأحمر من القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي، مرجع سابق، ص١٣٠.

٨٠انظر العلاقات التجارية لشبه الجزيرة العربية مع مصر، والإغريق والرومان: السيد محمد السعيد: النشاط التجاري لشعوب شبه الجزيرة العربية بالفترة الممتدة من بداية الألف الأول ق.م حتى منتصف القرن السادس الميلادي، القاهرة، ٢٠١٠م، ص-ص١٨٥-٢٢٣، ٢٥٨-٢٨٥.

٨١ابن حوقل: صورة الأرض، مرجع سابق، ص٦١.

٨٢O. G. S. Crowford: The Fung Kingdom of Sennar, John Bellows LTD., Gloucester, 1951, P. 122.

٨٣انظر: أحمد إلياس حسين: مدينة سواكن وقبيلة الحداربة في المصادر العربية، مرجع سابق، ص٥٨.

٨٤وللمزيد عن الشريف علم الدين وترجمته، انظر النويرى: نهاية الإرب فى فنون الأدب، جـ٣٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز تحقيق التراث، ١٩٩٠م، ص٢٣٩ -٢٤٠، و انظر على باشا مبارك: الخطط التوفيقية، ١٣/٦٢.

ولسواكن مع سكان جدة وبلاد الحجاز علاقات اجتماعية وثقافية، وكثيراً من العائلات التي تسكن ميناء جدة لها فروع بسواكن، فشكّل هذا رصيداً اقتصادياً وثقافياً لسواكن، كما أن لهم علاقات مصاهرة وعلاقات تجارية مع المدن السودانية الأخرى مثل بربر والدامر على نهر النيل وحتى الأبيض[٨٥].

ولما ذهب ابن بطوطة [٨٦] إلى جزيرة سواكن كان سلطان هذه الجزيرة هو الشريف زيد ابن أبي نمى وأبوه أميراً على مكة [٨٧]، وهذا يشير إلى ذروة العلاقة بين سواكن ومكة، وأيضاً فيها إشارة إلى أن سواكن كانت تتبع أمير مكة[٨٨]. وفي غضون العام ١٥٦٠م، كانت سواكن مقصداً للشيخ عجيب المانجلك، وهو في طريقه إلى أرض الحرمين، وفي زيارته تلك تزوّج من إحدى بنات الأمير الأرتيقي، كما أمر بإجراء بعض الترتيبات اللازمة والخاصة بحل ضائقة المياه والسقيا بالمدينة[٨٩]. وكان قد زار سواكن ٩٧٠هـ الشيخ عجيب المانجللك بن الشيخ عبد الله جماع، كبير وزراء مملكة الفونج قاصداً أرض الحرمين... ثم أبحر الشيخ عجيب إلى الحجاز، وهناك أنشأ رواقين للسودانيين السنارية؛ أحدهما بمكة المكرمة، والثاني

٨٥بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، مرجع سابق، ٢٠١٣م، ص٢٤٢. فبعد انتشار الإسلام بشرق السودان أصبحت سواكن مصدر إشعاع حضاري في كل بادية سواكن؛ فهي سوقهم ومهوي أفئدتهم. وكانت سواكن موطن هجرات عبر تاريخها الطويل، ولقد نقلت هذه الهجرات علومها ومعارفها. ولا شك أن الكثير من أبناء البجا، ممّن تعامل مع أهل سواكن قد تأثَّر بهم وبحضاراتهم. فالدين الإسلام واللغة العربية وصلا إلى البجا عبر سواكن، وقد كان التعليم قاصراً على القرآن والفقه والتفسير وغير ذلك من علوم الدين، حتى عام ١٨٩٢م. انظر: المرجع السابق، ص٢٤٢.

٨٦فيذكر ابن بطوطة: " كان سلطان جزيرة سواكن حين وصولي إليها الشريف زيد بن أبي نمي، وأبوه أمير مكة، وأخواه أميرها بعده، وهما عطيفة ورميثة اللذان تقدّم ذكرهما، وصارت إليه من قِبَل البجاة، فإنهم أخواله ومعه عسكر من البجاة، وأولاده كاهل وعرب جهينة". تولّت أسرة أبي نمي إمارة مكة منذ بداية القرن السابع الهجري (١٣م)، وكان أمراء مكة يعترفون بسلطة أمراء المماليك على مناطق نفوذهم، كما ذكر ابن خلدون (٧٣٢هـ-٨٠٨هـ-١٣٣٢م-١٤٠٦م)، وقد فرض المماليك سيادتهم الاسمية على سواكن منذ بداية قيام دولتهم، فقد استولى عليها المماليك عام ٦٦٤هـ/١٢٦٥م، وهرب أميرها علم الدين أصبغاني، لكنه عاد إليها بعد مغادرة الجيش المملوكي، وورد في المصادر تكرار تدخُّل المماليك في شؤون ميناء سواكن دون تعيين والٍ عليها، بل اكتفوا باعتراف ولاتها لسلطانهم. وقد ذكر ابن بطوطة أن إمارة سواكن آلت إلى أسرة بني نمي لمصاهرتهم للبجا. ويعني ذلك أن إمارة سواكن كانت في يد البجا قبل آل نمي. ولا اعتقد أن البجا يفرّطون في السلطة في سواكن، وأغلب الظن أنهم كانوا يقاسمونهم الإدارة، كما كانوا يفعلون في عيذاب. انظر: انظر: أحمد ألياس حسين: مدينة سواكن وقبيلة الحدارية في المصادر العربية، ص٦٥-٦٦.

٨٧قيصر موسي الزين: سواكن وإطار تاريخ السودان عبر العصور، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، سلسلة ندوات التنوير (٩)، مركز التنوير المعرفي، سلسلة الـ (١٠٠) كتاب في الثقافة السودانية، كتاب الخرطوم الجديدة (٧٨)، تحرير منتصر أحمد النور، الخرطوم، الطبعة الأولي، ٢٠١٣م، ص٢٩٣.

٨٨وللمزيد عن العلاقة الإدارية بين سواكن وبلاد الحجاز انظر جلال يحي: مصر الإفريقية والأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر، المكتبة التاريخية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٢٧.

٨٩وهذ في عهد الفونج وسلطنتهم المسلمة (١٥٠٤م-١٨٢١م) الذي دخلت سواكن في أملاكها في عهد السلطان عمارة دُنقس، والذي كان من الراجح استخدام السلطات الفونجية مدينة سواكن منفىً لغير الراغبة في بقائهم في الجوار منها بمدينة سنار، أو مشاركتهم السلطة من السلاطين والوزراء بدولتهم. انظر: سيف الإسلام بدوي بشير: سواكن الملاحة وتداعيات الحركة التجارية في البحر الأحمر من القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي، مرجع سابق، ص١٢٤. وبالتطرق إلى فترة العهد التركي-المصري بالبلاد وما اتصل به من الترتيبات الإدارية تجاه هذه المدينة، نذكر أن الباب العالي العثماني أصدر فرماناً بالموافقة على طلب الخديوي محمد على باشا (١٧٦٩-١٨٤٩م) بضمَّ كلَّ من سواكن ومصوَّع إلى أملاكه، باعتبارهما مستعمرتين تابعتين لإستانبول منذ استيلاء الأميرال سنان باشا عليهما، شريطة إعادتهما مجدداً تابعتين لولاية الحجاز بعد وفاته. وقد اتخذهما الخديوي، بعد أن نصَّب عليهما محافظاً من قبله، قاعدتين حربيتين وتجارتين لتصدير السلع التجارية المستجلبة من بلاد السودان والحبشة إلى الحجاز ومصر. انظر المرجع السابق، ص-ص١٢٤-١٢٥.

بالمدينة المنورة، وكان يصرف عليهما وعلى الثالث وهو بالأزهر الشريف من خزينة السلطنة الزرقاء، حتى زالت دولتها سنة ١٨٢١م، على يد محمد على باشا[٩٠].

كان لسواكن ارتباط بالحجاز ومصر، وقوي ذلك قُرب هذه البلاد من سواكن، وللصلات التجارية. ولعل مدينة جدة كانت الأقرب، واتصلت العلاقات الاجتماعية والأسرية مع سكان جدة إلى يومنا هذا. وتوثَّقت كثيراً، في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي وما بعده، العلاقات الاجتماعية بين جدة وسواكن، فهاجرت أسر عربية للسودان، وأقامت البيوت التجارية بسواكن، حيث ربطت الحياة الاقتصادية بين الساحلين. من تلك الأسر آل الزهيري، وهم أقرباء آل عبد اللطيف جميل بجدة، وبينهم صلات قوية إلى الآن. وآل سليمان شمس وآل باعبود وآل باوراث وآل على مريشد وآل كيال وآل الدومي وآل على الجداوي وآل بعشر، وآل الكردي وآل جرتلي وآل مسلم الحربي.. وهذه الأسر تُعرف بالسواكنية، وتُعرف كذلك بالجداوية نسبة لمدينة جدة[٩١].

ثالثاً – طريق الحج من بربر إلى سواكن:

لقد أدى تحكُّم الأتراك–سابقاً–على ميناء سواكن التي أصبحت منفذ السودان الوحيد للبحر، الذي تصل إليه عدة طرق من الداخل بالنيل عند بربر أو شندي، وطرق عديدة تتخذها القوافل في مجموعات كبيرة بغرض الحماية من قطاع الطرق، مثل درب الأربعين من دار فور إلى أسيوط، ومنها إلى البحر الأحمر، وهناك طريق ثالث يبدأ من دنقلا إلى الواحات ثم يتصل بطريق الأربعين.. وكل هذه الطرق تصل بقية أنحاء السودان، والجمل سفينة الصحراء، هو وسيلة الترحيل من الداخل إلى سواكن على البحر الأحمر. ومن سواكن يحمل التجار إلى الداخل كميات من العطور والروائح الهندية والصابون والمنسوجات، وأنواعاً مختلفة من البهارات والعدد الحديدية، ويرجعون بالرقيق والصمغ وسن الفيل، مما عرف السودان بإنتاجه. وبقدَّر ما كان يصدّر سنوياً من الرقيق لمصر وغيرها عن طريق قافلة سنار[٩٢] بألف وخمسمائة، وعن طريق سواكن بألفين ومائتين، ولكن ما يباع ويستخدم في داخل البلاد يفوق هذا العدد[٩٣]. وكانت القوافل تخرج من سواكن إلى داخل السودان، لا تقل القافلة عن الألف أو الألفين من الجمال، وأحياناً ثلاثة آلاف. وكانت رسوم الصادرات في تلك الأيام تقدَّر بنحو ستين ألف جنيه مصري. من أهم الطرق التجارية التي تربط سواكن طريق أبو حمد كورسكو جنوب مصر كمنفذ للتجارة الخارجية.. وفي فترة لاحقة نجد أن طريق أبو حمد–سواكن وطريق بربر–سواكن،كانا من أهم الطرق التجارية في فترة الفونج[٩٤].

٩٠السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م–١٩٢٣م)، ص١٧٢.

٩١انظر: بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، ص٢٤٦.

٩٢ولعل أقدم تمازج تمَّ بين البجا وبعض قبائل السودان العربية يتمثَّل في زواج الشيخ عجيب المانجلك (شيخ العبدلاب بإحدى بنات البجا عند زيارته سواكن عام ١٥٦٠م، ومن هذا الزواج كانت قبائل الأتمن (نسبة لعثمان بن حبيب). بل أن بعض القبائل التي تقطن المناطق النيلية لها أصول سواكنية من الأرتيقا هاجروا لتلك المناطق مثل الشنابلة في الجزيرة والحمران في البطانة. انظر: بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، ص٢٤٦.

٩٣السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م–١٩٢٣م)، مرجع سابق، ص–ص١٨٩–١٩٠.

٩٤انظر: بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، مرجع سابق، ص٢٤٩.

ولسواكن علاقات اجتماعية أسرية مع بعض المدن التي تربطها بها علاقات تجارية مثل بربر. ولعل مصاهرة الأمير عثمان دقنة لإحدي الأسر ببربر تدلّ على ذلك. وكذلك علاقات المجاذيب في الدامر بأهل سواكن وضواحيها تؤكد تلك الروابط، وكان لأهل سواكن علاقات بالأبيض وغيرها من مدن السودان [٩٥].

وفي مطلع القرن التاسع عشر، أعطي بوركهارت[٩٦] وصفاً مناسباً للطرقات التي اتبعها الحجاج للوصول إلى دار فور. كانت أولى هذه الطرق تسير على طول درب الأربعين. وكان الطريقان الرئيسيتان الأخريان تمران عبر سنّار[٩٧]. أو عبر شندي. فالذين يمرون عبر سنّار "يواصلون رحلتهم عبر ثلاثة طرق مختلفة:-

١-داخل الحبشة، مروراً بغواندر وأكسوم إلى مَصوّع.

٢-على طول النيل، من سنار إلى شندي.

٣-ومن سنار إلى تاكا مروراً برأس الفيل ومنها إلى هالنغا".

وقد لاحظ بوركهارت أن الطريق من دار فور إلى شندي كانت الأكثر استخداماً. كان الحجاج يذهبون من شندي إما باتجاه الشمال إلى دامار "الأخذ طريق الحج الرئيسية إلى رأس الفيل وتاكا وسواكيم" أو يواصلون سيرهم شمالاً على طول النيل إلى مصر، أو ينطلقون شرقاً من أسيوط إلى القُصير، أو يواصلون السير باتجاه الشمال نحو القاهرة لمرافقة القافلة المصرية. وفيما بعد أدى تمديد خط السكة الحديدية داخل جمهورية السودان إلى كسلا وبورت سودان [٩٨]، إلى تركيز حركة السَّير إلى ميناء الحج في "سواكين". وكان بعض العلماء والسماسرة يسافرون أيضاً عبر بلاد النيل في تواريخ مبكرة[٩٩]. فالأغا الذي وجده بوركهارت حاكماً على سواكن كان أول أمره مهرجاً للقصر وسمساراً بسوق

٩٥المرجع السابق، ص:٢٤٣.

٩٦ولد الرحالة جون لويس بوركهارت John Lewis Burckhardt في لوزان السويسرية، والتحق بجامعة ليبزج Leipzig لمدة أربع سنوات، ثم إلى كتنجن Cottigen وبازل Basle ولندن، حيث عرض خدماته على الجمعية الإفريقية African Association، ثم تفرغ لدراسة اللغة العربية وتلقى المحاضرات في علوم الكمياء والجيولوجيا والطب، ومارس الرياضات الشاقة والعنيفة والمشي لمسافات الطويلة تدرباً لما سيلاقي. وفي عام ١٨٠٩م سافر إلى الشام وبقي فيها مدة عامين ونصف زاد من معرفته باللغة العربية والتقاليد الإسلامية. وفي عام ١٨١٢م غادر إلى مصر، ومنها إلى النوبة عام ١٨١٣م، ثم عاد إلى إسنا، متنقلاً بعدها من دارو في مصر مع قافلة متجهة لسنار في مارس ١٨١٣م متزيياً بزي تاجر مسلم فقير عابر للصحراء النوبية، حيث نزل (في بربر على النيل، ثم انتقل إلى شندي... ومن شندي سلك طريق نهر عطبرة إلى قوز رجب، ومنها إلى التاكا أو كسلا.. ثم غادر التاكا إلى سواكن.. ومن سواكن أبحر إلى جدة التي وصلها في ٤ أغسطس ١٨١٤م. انظر: عمر عبد الله حميدة: سواكن في رحلات بوركهارت، مرجع سابق، ص.٢٠٠.

٩٧ثم ازدهرت سواكن مرة أخري بظهور دولة الفونج التي خلفت مملكة علوة في أوائل القرن السادس عشر للميلاد (٩١٠هـ/١٥٠٤م) وفرضت سلطانها وسيطرتها على أغلب الأراضي السودانية في حوض النيل حتى شرقي السودان أيام عمارة دنقس على كل حال، نستخلص من الأقوال السابقة أن الزنوج استطاعوا أن يمدوا سلطانهم حتى سواكن في وقت مبكر منذ قيام دولتهم، والدليل على ذلك الاهتمام الكبير من ملوك الفونج بميناء سواكن، الذي يعتبر منفذاً لتجارتهم. وكانت سنار عاصمة الفونج، ملتقى الحضارة والقوافل من الحبشة ودار فور وفزان، ثم تتجه القوافل منها إلى سواكن. وقد ساعد ظهور الفونج على أن تستعيد سواكن أهميتها، وتخدم التجارة بين شرقي السودان وبلاد العرب. انظر: السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م-١٩٢٣م)، مرجع سابق، ص-ص١٦٧-١٦٨، ص١٧١.

٩٨انظر: محمد صالح ضرار: تاريخ بورتسودان عروس البحر الأحمر، مكتبة التوبة، الطبعة الأولي، ٢٠٠٩م، ص٨. كما قال بوركهارت يقال لها الشيخ برغوت قد بناها ودور سقفها البحارة من السواكنيين الذين يحسنون الظن في صاحب الضريح ويعتقدون أنه حامي البحارة من السوء

٩٩انظر: عمر النقّر: تقليد زيارة الأماكن المقدسة في إفريقيا الغربية، مرجع سابق، ص-ص٢١٦-٢١٧، ص٢٢٠.

جدة، فلما وصل محمد على استطاع الرجل أن يتودَّد إلى العثمانيين بما يعرف من تركية قليلة فقلَّدوه وظيفته الحالية.[١٠٠]

ولقد وصف الحدارب، الذين ينتسبون إلى حضارمة اليمن، انطلاقا من موطنهم عند مدينة سواكن، بأنهم كانوا أركاناً للتجارة والحركة التجارية بالبلاد[١٠١]، ولا يشاطرهم في ذلك مكانة وشهرة سوى الأهلين من تجار مدينة بربر، والذين كان لهم اليد الطولي في الاتجار بالخيول ببلاد اليمن. وتعتبر مدينة سواكن، قبلة الوافد من الوكلاء والمفوضين من مدن شندي[١٠٢]وبربر وكسلا وسنار والأبيض والفاشر، ومن هم دونهم بالداخل من المروّجين والوسطاء التجاريين. حيث كانت ترد على أسواقها جيئة وذهاباً، العديد من القوافل التجارية، وهي مُحمَّلة بالمختلف والمتنوَّع من المنقولات والعروض التجارية. ولقد برهن التجار الأرتيقا، لما لهم من المقدرة والصفات كالصدق والأمانة والإلمام الكبير بمسالك البلاد ودروبها، أنهم من أعرق أمم السودان، دراية بالتجارة واشتغالاً بالاتجار والحركة التجارية[١٠٣].

هذا الطريق كانت تسلكه قوافل الحج والتجارة التي كانت تذهب إلى ساحل بحر القلزم عبر ميناء سواكن. ورغم أهمية هذا الطريق، إلا إن قوافل الحج القادمة من بلاد السودان، كانت لا تفضل السير عبر دروب ومسالك هذا الطريق. وكانت بربر تعد مركزا تجارياً مهماً في سودان وادي النيل خلال العصر الوسيط، حيث كانت القوافل التجارية تأتي إلى مدينة بربر من كل من مصر وسواكن وشندي ودنقلة عبر "صحراء البيوضة" [١٠٤]. ويرى البعض أن اسم بربر لم يطلق على المدينة إلا أيام العهد

١٠٠عمر عبدا الله حميدة: سواكن في رحلات بوركهارت، مرجع سابق، ص٢٠٣.

١٠١هذا ما رواه الرحالة السويسري بوركهارت (١٧٨٤-١٨١٧م): ".. ودائماً تلقي جماعة منهم في أي مدينة بالسودان، فتراهم ببضائعهم في بربر وكسلا وشندي وسنار والأبيض والفاشر. وفي أثناء إقامتي في شندي شاهدت قافلتين قامتا منها إلى سواكن، والتي وصلت منها قافلة كبيرة جداً" انظر: بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، مرجع سابق، ص٢٤٨.

١٠٢نال ميناء سواكن شهرةً بوصفه أحد الثغور الملاحية الرئيسية لتصدير الرقيق والخيول والتبغ والعاج والصمغ والذهب والريش، كما شملت الصادرات عبره، لاحقاً، أي في غضون عام ١٨٧٣م تقريباً، القطن والجلود والمحاصيل والصمغ والعسل والشمع وجميعها من العروض التجارية التي تجد رواجاً في بلاد الهند وعدن، ومن ثم عبر البحر الأبيض المتوسط إلى الأسواق والمراكز التجارية الأوروبية. باستثناء الرقيق وأصنافه الذي يتم تداوله وبصورة أساس بالأسواق التجارية بكل من مصر والجزيرة العربية. وفي هذا السياق يأتي ذكر مدينة شندي بوصفها سوقاً رائجاً للرقيق، ومركزاً حيوياً لالتقاء التجار ووكلائهم، وللقوافل التتجارية القادمة من مصر ودارفور وكردفان وسنار والحبشة والمغرب وجزيرة العرب، المنطلقة إلى سواكن عبر شبكة من الدروب والطرق البرية القصيرة والممتدة باتجاه منطقتي إريتريا ومصوَّع. وكانت جملة الرَّكائب المكدسة بالجاف من ثمار نبات السنمكة، إلى جانب ريش النعام والصمغ، تعتبر من بين أهم السلع والبضائع التجارية المستجلبة من مناطق دار فور وكردفان إلى ميناء سواكن البحري،علاوة على القطن والجلود والمواشي من جهات مدينة كسلا وضواحيها. أما الواردات فقد تمثّلت في البن والعاج والصمغ التي كانت ترد إليها من بلاد الحبشة. أما السكر والأقمشة المصنعة والحريرية والعطور الهندية والحجارة الكريمة من قبيل الخرز والسوميت والكهرمان، وهذا الأخير باهظ التكلفة والثمن كان مرغوباً تجارياً باسواق دار فور وكردفان بالداخل، وكذلك الصابون والأرز والحديد، وكلها كانت من العروض التجارية المستوردة من جهات وأقطار أوروبا والشرق الآسيوي البعيد. انظر: سيف الإسلام بدوي بشير: سواكن: الملاحة وتداعيات الحركة التجارية بالبحر الأحمر، مرجع سابق، ص-ص١٣٠-١٣١.

١٠٣انظر: سيف الإسلام بدوي بشير: سواكن الملاحة وتداعيات الحركة التجارية في البحر الأحمر من القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي، مرجع سابق، ص١٢٩.

١٠٤ود ضيف الله: كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، تحقيق وتعليق: الدكتور يوسف فضل حسن، ط٣، دار جامعة الخرطوم للنشر، دون تاريخ، ص ٤٢، هامش ٢.

التركي المصري، إذ كان اسم المركز التجاري عند زيارة الرحالة جيمس بروسJames Bruce القوز[١٠٥] أو قوز الفونج[١٠٦]. بينما أطلق الرحالة بوركهارت على بربر اسم النخيرة، أو المخيرف[١٠٧]. ولعل أهمية بربر التجارية، كان لها دور في زيادة أهمية هذه المدينة على طرق الحج، التي كانت قوافل الحجاج تقصدها من أجل الذهاب إلى ميناء سواكن.

لقد أُعطيت صورة شبه مقبولة عن حركة مرور الحجاج على هذه الطريق من قبل المراقبين المختلفين. بوصف لرحلة حج من السودان الغربي أعطاها دنهام وكلابرتون:[١٠٨]"قدم من السودان [هاوسا] كفيل مصطحباً معه الفتي فيغي من تمبوكتو، ابن زعيم من الفلاتا في دجني، يدعي عبد الغسام بن ماليكي... لقد غادر الفتي كوكا في شهر أغسطس برفقة رجل مُسنّ من الفيغي من واداي، مع كيس صغير من الجلد يحتوي على بعض الذرة المُجفّفة وقنينة ماء. أعطته دولاراً لكي يدفع إجرة عبور البحر الأحمر.."[١٠٩]

ويشير الرحالة بوركهارت، الذي زار هذه المناطق خلال القرن التاسع عشر الميلادي، إلى أن الحجاج السودانيين كانوا قلما يختارون الطريق من بربر إلى سواكن؛ لأنهم كانوا يرهبون في ذلك الوقت جماعات قبائل البشارية، الذين كانوا يعتدون على قوافلهم، وخاصة أن فرصة السفر في قوافل التجار لا تتهيأ لهؤلاء الحجاج السودانيين إلا قليلا، إذ إن هذه القوافل التجارية كانت تؤثر المسير عبر طريق التاكة إلى سواكن في العادة[١١٠].

رابعاً – الدامر وأهميتها في طريق الحج إلى سواكن:

١٠٥وسعى بروس للحصول على خطابات توصية لحاكم أسوان وإبريم ودير في صعيد مصر، وخطابات توصية من علي بك لبك السويس وشريف مكة ونائب مصوع وملك سنار ووزيره حينذاك. وترابض السفن الراسية من مصوع وسواكن المتجهة إلى جدة وقت ذروة الرياح الموسمية في الصيف بالقرب من ساحل الحبشة، حيث تواجه رياح شرقية خفيفة منتظمة تضرب طوال الليل، ورياح غربية خلال النهار. وكان ميتكال أغا Metical Aga، وهو صديق عظيم لحامي الإنجليز في جدة، في الأصل عبداً حبشياً، وعده بروس أهلاً للثقة وأدار مبيعات الملك والعاج والكثير من السلع الثمينة مقابل الحصول على أسلحة نارية. أما نائب مصوع، والتي كانت تابعة لحكومة باشا جدة، فإنه كان بصدد أن ينأي بنفسه عن هذا التحالف وأعد للاستقلال عن تبعية مصوع لجدة. وتوقف عن دفع الجزية ولم يستطع الباشا (الذي لم تكن لديه قوات كافية) إجباره على ذلك، لأنه كان قبالة الساحل الحبشي. بأي حال فإن ميتكال أغا والباشا اتفقا في النهاية، وسلم الأخير للأول الجزيرة وإقليم مصوع مقابل مبلغ يتم دفعه سنوياً وعين ميتكال أغا مايكل، حاكم التجراي، محصلاً لاستحقاقاته، ودعم في النهاية رحلتي داخل الحبشة ثم إلى سنار وازدهرت تجارة الهند بشكل متزايد في سواكن ومصوع، كما كان عليه حال ازدهارها في عهد الخلفاء. وقد منع بعض التجار الهنود غير المسلمين من الوصول إلى الأراضي المقدسة بالحجاز، ومن ثم فإنهم اعتمدوا على اليمن وسواكن ومصوع في تمرير تجارتهم إلى جدة، مقابل الحصول على منتجات مثل ذهب سنار الصافي عبر الحبشة. انظر: محمد عبد الكريم أحمد: رحلة جيمس بروس لكشف منابع النيل مصدرا لتاريخ طرق الحج في أفريقيا (١٧٦٨-١٧٧٣م)، (سلطنة سنار نموذجا)، بحث غير منشور مقدم لمؤتمر طرق الحج في إفريقيا، بجامعة أفريقيا العالمية، الخرطوم، ٢٠١٦، ص١٣.

١٠٦ود ضيف الله: كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين، المصدر السابق، ص ٤٢، هامش ٢.

١٠٧المرجع السابق نفسه والصفحة.

١٠٨انظر الرحلة من ميرمور إلى كانو ومن كانو إلى سوكوتو والإقامة هناك: الميجور دنهام والكابتن كلابرتون والرحالة أودني: رحلة لاستكشاف إفريقيا، ترجمة: عبد الله عبد الرازق إبراهيم، ومراجعة شوقي الجمل، الجزء الثاني، المشروع القومي الترجمة، (٤٢٢)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص-ص١٤٩-٢٣٢.

١٠٩انظر: عمر النقّر: تقليد زيارة الأماكن المقدسة في أفريقيا الغربية، مرجع سابق، ص-ص٢١٧-٢١٨.

١١٠وللمزيد عن ذلك، رحلات بوركهارت: ص٣٢٧-٣٢٨.

والدامر مدينة تجارية من أهم المراكز التجارية في السودان، خاصة في الأجزاء الشمالية منه. وتشمل الصناعات القائمة في المدينة منذ العصور القديمة تعبئة التمور وصنع الكحول والمشروبات، وتصنيع المنتجات المحلية الأخرى مثل الطماطم والمانجو والخضروات. كما تكتسب التجارة في الأغنام والماشية الأخرى أهمية، والدامر تقع على الطريق الرابط بين النيل وميناء بورتسودان حاليا، الذي كان جزءا من منطقة سواكن، وتكتسب أهمية من وقوعها بالقرب من بربر وعطبرة والخرطوم[١١١].

تعد منطقة الدامر من أهم المحطات التي كان تعبرها قوافل الحجاج القادمة من بلاد السودان، سواء من السودان الغربي أم الأوسط، إلى ميناء سواكن، من أجل عبورها الى بلاد الحجاز. وكان يتفرع من منطقة الدامر الطريقان الرئيسيان اللذان كان يتخذهما الحجاج، فكان فريق منهم يمضي إلى طريق الحج المصري من قوص إلى عيذاب هابطا مع نهر النيل، بينما فريق آخر كان يؤثر أن يرتقي ضفاف المقرن ونهر العطبرة Atbara حتى قوز رجب، ومنها إلى التاكة، ثم ترتحل القافلة إلى جزيرة سواكن بعد ذلك[١١٢].

وهنا نستطيع أن ندلل بمثال على التأثيرات الحجازية على سواكن، ومن ناحية أخري التأثيرات الداخلية السودانية على سواكن عن طريق الدامر، كطريق للحج يتسم بالثقافة الإسلامية، فكان للطريقة الشاذلية المجذوبية أثر كبير في سواكن وضواحيها. فقدم الشيخ محمد المجذوب ١٢١٠-١٢٤٧هـ/١٧٩٥-١٨٣١م لسواكن من الحجاز، بعد أن تعلم أمور الدين، فلما توفي رحمه الله خلا مركزه بسواكن، فاستقدم على بك دقنة، رئيس بندر سواكن، الشيخ الطاهر المجذوب ١٢٤٨-١٣٠٧هـ/١٨٣٢-١٨٩٠م من الدامر، فحضر وهو غلام صغير، فتعلَّم على يد الشيخ ياسين عبد القادر سالم الرضواني من الأرتيقا، وأخذ عنه عهد الطريقة.[١١٣] وهذا يعطينا انطباع عن اتصال الدامر بالتأثيرات الإسلامية والثقافة العربية من خلال استخدامها كطريق للحج.

وكانت الرحلة الأولى إلى الديار المصرية أطول، لكنها كانت أقل مشقة على قافلة الحج، وكلما اقترب الحجاج من المدن المصرية، كانوا يلقون من سكان الوادي صدقة أكثر. ويشير الرحالة بوركهارت

١١١https://www.britannica.com/place/Al-Damir

١١٢رحلات بوركهارت: ص٣٢٤.

١١٣على يد الشيخ الطاهر المجذوب درس الأمير عثمان دقنة (١٨٣٦-١٩٢٦م). وكان الشيخ الطاهر المجذوب أوَّل من بايع عثمان دقنة عن إعلان المهدية، وكان ذلك باعثاً لانضمام الهدندوة إلى الدعوة المهدية تحت إمارة الأخير انظر: بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، مرجع سابق، ص٢٤٣. وعثمان دقنة نفسه كان تاجراً يقوم بالمتاجرة مع الحجاز... فكان تجار سواكن، يفدون على كل مدن السودان لجمع السلع والمنتجات، ومن ثم تصديرها لميناء سواكن. بل وجد الأمير عثمان دقنة، عند قدومه لمدينة الأبيض لمبايعة المهدي، مجموعة كبيرة من تجار سواكن، مقيمين فيها، ومنهم الشريف عمر قبسة والشريف محمد على كرار والشريف عبد الله حسين القاضي، معظمهم من قبيلة الأرتيقا أهل سواكن، مما يؤكد صلة سواكن تجارياً مع المناطق الداخلية في السودان، (انظر: المرجع السابق، ص٢٥٠.) ومن ناحية أخرى اختلاط التجارة بالدين عن طريق التجار الأشراف أو العلماء أو الفقهاء.

وكان الأمير عثمان دقنة نفسه يسافر إلى بربر بتجارته، حتى أنه تزوج من أهل بربر، وصاهر آل الضوي بمدينة بربر، ولأهل سواكن صلات تجارية مع كل المدن السودانية، وبعض هذه العلاقات تطوَّرت إلى صلات أسرية ومصاهرة. نجد ذلك في بربر والدامر والمسلمية والأبيض وغيرها، حيث صاهر الأرتيقا غيرهم من القبائل السودانية. (المرجع السابق، ص٢٥٠)

إلى أن عرب الشايقية[١١٤] كانوا يفخرون بسخائهم على الحجاج التكارنة القادمين من بلاد التكرور[١١٥] وسائر السودان الغربي[١١٦]، والمعروف أن اسم التكرور كان يطلق على أهل السودان الغربي تحديداً[١١٧].

وفيما يرى الرحالة جون لويس بوركهارت، فإن هذا السخاء والكرم الذي يجده حجاج التكرور هناك، كانوا يعرفون أنهم يدفعون بسببه ثمناً فادحاً، لأنه يكلف كل نفيس يحمله. أما بعد ذلك فلا أمن ولا اطمئنان، وقد درج الحجاج التكارنة على أن يستبدلوا ببضاعتهم ذهبا في شندي Shendy، إذ إن اخفاء الذهب أيسر من غيره [١١٨].

خامساً – محطات طريق الحج التاكة–سواكن حسب رواية بوركهارت:

يمكن الوصول لجزيرة سواكن بالقارب عبر قناة ضيقة للغاية تأتي من البحر الأحمر باتجاه الجنوب الغربي، ومن البر عبر طريق معبد تم بناؤه فوق المياه الضحلة. وتقع مدينة سواكن على جزيرة مرجانية يحميها حيد بحري عند مدخلها البحري. واشتهرت سواكن مدينة إسلامية منذ ما قبل استيلاء العثمانيين عليها، وظلت سواكن الميناء الرئيس للسودان بعد فقدها ميناء عيذاب في الشمال في عام ١٤٩٢. وأول وصف لسواكن قدمه أوروبي في كان ما قدمه دون خوان دا كاسترو Don Juan Da Castro الذي سجل رحلته من البرتغال في عام ١٥٤٠ ويقول: تقع المدينة وسط زاوية دائرية في جزيرة مسطحة، شبه دائرية بشكل مثالي وتعلو فوق البحر قليلاً. ولا يوجد موطئ قدم في هذا المكان، لأنها مكتظة بالمنازل للغاية، وهكذا فإن الجزيرة بأكملها عبارة عن مدينة مزدحمة١١٩. ولا شك أن ديفيد روبيني [١٢٠] الرحالة

١١٤عن الشايقية انظر الأصل والنسب، ومملكة الشايقية ١٦٧٢–١٨٢٠م: عباس محمد الزين: صور من حياة الشايقية القرن التاسع عشر، الجزء الأول، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، الطبعة الأولي، ١٩٩٥م، ص–ص١٥–٣١.

١١٥عن التكارير وبلاد التكرور انظر: عمر النقّر: تقليد زيارة الأماكن المقدسة في أفريقيا الغربية، مرجع سابق، ص–ص٤٩–٥٢.

١١٦بلاد التكرور: يشير لفظ "التكرور" (أو التكاررة) إلى جماعات زنجية، أقامت فى منطقة حوض نهر السنغال، وقد تأثرت بالهجرات التى استقرت بها، لا سيما القادمة إليها من بلاد المغرب الأقصى. وقد صار اسم بلاد التكرور – في المصادر العربية من العصور الوسطى – يطلق على جميع بلاد السودان الغربي (غرب إفريقيا). ويعتقد أن اسم التكرور ذاع في تلك البلاد بسبب سبق أهالي هذا الإقليم إلى اعتناق الإسلام، فضلا عن دورهم فى الجهاد مع المرابطين بهدف نشر الدين (د. على السيد محمود، العرب فى إفريقيا، ص ٨٥). وقد اشتهرت مملكة مالي إبان العصور الوسطى باسم "بلاد التكرور"، بين العامة من أهل مصر. يقول العمري: "ويغلب على سلطان مالي عند أهل مصر سلطان التكرور، ولو سمع هذا أنف، لأن التكرور إقليم من أقاليم مملكته، والأحب إليه أن يقال صاحب مالي، لأنه الإقليم الأكبر، والتكرور مدينة من مدنها..." (د. محمد أمين، مجلة الدراسات الإفريقية، ص ٢٧٥). وقال القلقشندي: "مالي المعروفة عند العامة ببلاد التكرور..." (القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٢، ص٢٠٤). ومما يلفت النظر أن بعض المؤرخين والرحالة لم يسغ له استخدام اسم التكرور، بل ذكر تلك المنطقة باسم بلاد السودان. ومن هؤلاء الرحالة المغربي ابن بطوطة الذى زار تلك البلاد في حوالي سنة ٧٥٣ هـ، فيقول: " فوصلت الى مدينة مالى حضرة ملك السودان، فنزلت عند مقبرتها ..." (ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص ٦١٣). وقال ابن بطوطة فى موضع آخر:" وتوجهت برسم السفر الى بلاد السودان، فوصلت إلى مدينة سجلماسة...ومن أنلى المجلوب من بلاد السودان..." (للمزيد انظر رحلة ابن بطوطة: ص٦٠٦)

١١٧وللمزيد انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٢٠٤.

١١٨رحلات بوركهارت: ص٣٢٤.

١١٩ Daniel Rhodes, The Nineteenth-Century Colonial Archaeology of Suakin, Sudan, International Journal of Historical Archaeology, Vol. 15, No. 1 (March 2011), pp.164-165.

وشبّهها دون جون دي كاسترو البرتغالي بأنها لشبونة الشرق. انظر: بدوي الطاهر أحمد البدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، ص٢٦٠.

١٢٠ذكر الرحالة داود روبيني في زيارته لسواكن ١٥٢٠م أنه غادر سواكن قاصداً سنار في قافلة عديدها ثلاثة آلاف جمل، وأنه اصطحب أحد تجار سواكن من الأرتيقا ويدعي عمر أبو كامل. انظر: بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، ص٢٤٩.

اليهودي الشهير الذي قام برحلة إلى السودان في القرن السادس عشر، قد زار سواكن، وأنه عبرها من جدة، واستغرقت رحلته من جدة لسواكن يوم واحد، وسافرت قافلة روبيني من سواكن إلى أشا Asha أو أسا Asa، وربما ترتبط بالحسا El Hassa شمال بربر أو عند نهاية طريق القوافل القديم من سواكن إلى النيل[١٢١].

تعد رواية الرحالة بوركهارت من أفضل المصادر التاريخية التي وصفت هذا الطريق، ووصف بوركهارت دروب هذا الطريق، ومسالكه بدقة. وهذا الطريق فيما يذكر بوركهارت أعمر الطرق بالحجاج الزنوج، وهو الطريق الذي يمتد من الدامر سيراً من المقرن حتى منطقة التاكة، ومنها إلى سواكن، وكانت أعداد الحجاج عبر هذا الطريق يبلغون حوالي خمسمائة حاج حسب ما ذكر. وهم لا يسافرون في أفواج كبيرة، ولكن تجد منهم الجماعات القليلة كل يوم، تقريباً، سائرة على ضفاف النهر.

وكان القادرون من الحجاج القادمين من بلاد التكرور يبتاعون الحمير من بلدة الدامر، وكانوا يوسقونها دقيق ذرة لزادهم وطعامهم في الطريق، ثم كانوا يسيرون في جماعات من عشرين شخصاً، فإذا حاول قطاع الطرق الاعتداء عليهم خلال مسيرهم قاوموهم بقوة، مستعينين عليهم بالعصي. أما في القرى فهم مطمئنون إلى حماية شيخ القرية، أو على الأقل هم واثقون من أن زادهم ودوابهم لن تسرق منهم[١٢٢]. ومن المجموعات السكانية وإن كانت غير مقيمة التي لفتت أنظار بوركهارت وأفردها بعناية، خاصة مجموعة الحجاج المسلمين من السودان الأوسط والغربي الذين اتخذوا سواكن ميناءً للعبور الأراضي المقدسة، وقد وصف مجموعاتهم ومساهماتهم الاقتصادية في سواكن وما يلاقونه من مشقة وضنك[١٢٣].

لقد أعطانا بوركهارت صورة فريق الحجاج وأمتعتهم، بعد وصولهم إلى النيل:"كان هناك أيضاً ما يبدو كأنه نشاط تجاري كبير، يمارسه الحجاج أنفسهم في طريقهم إلى الحج. كانت السلع التجارية في معظمها من الحمير التي يبتاعوها من دار فور، والكتب والبضائع الأخرى. ويبدو أن الحجاج كانوا يتعاطون أيضاً تجارة الرّقّ من وقت لآخر". كانت تجارة الحُجب أهم تجارة يمارسونها، ومعظمهما ربما في بلاد النيل. يخبرنا بوركهارت "كان همّ الناس في الأرياف، سواء في إفريقيا او في الجزيرة العربية، لدي مرور رجال الفاكي الزنوج، شراء تعويذاتهم، إذ كانوا يعتقدون أنها تحمل فضائل أكبر من فضائل أي طبقة من الحجاج". [١٢٤] فيروي بوركهارت: فقد سمعت الإفريقيين من جميع الطبقات يستهجنون أشد الاستهجان ما يرويه الحجاج العائدون إلى أوطانهم عن انحرافات الترك والأعراب. وللحقيقة، فالواقع لم يكن كذلك-بما وصفه بوركهارت من فساد أخلاقي ومجتمعي-. فالتقاليد والقوانين الإسلامية والعرفية وسط هذا المجتمعات كانت دقيقة وحاسمة[١٢٥].

١٢١S. HILLELSON, DAVID REUBENI'S JOURNEY, Sudan Notes and Records, Vol. 18, No. 1 (1935), p.154.

١٢٢رحلات بوركهارت: ص٣٢٥.

١٢٣عمر عبد الله حميدة: سواكن في رحلات بوركهارت، مرجع سابق، ص٢٠٦.

١٢٤انظر: عمر النقّر: تقليد زيارة الأماكن المقدسة في أفريقيا الغربية، مرجع سابق، ص-ص٢١٩-٢٢٠.

١٢٥عمر عبد الله حميدة: سواكن في رحلات بوركهارت، مرجع سابق، ص-ص٢١٢-٢١٣.

وكان رحلة الحجاج عبر طريق التاكة – سواكن تحيط به الكثير من المخاطر قد تؤدي إلى هلاك أعداد كبيرة من الحجاج، إذ إن سدسهم تقريباً يلقى حتفه جراء هذه الغيرة على الدين، فيما يقول بوركهارت، وكانت أكثر الأمراض التي تصيبهم في الطريق بسبب عدم توافر ثياب لديهم، كما أن عددا كبيراً منهم كان يهلك بسبب الجوع، ومشقة السفر، ومنهم من كان يموت قتلاً، لكن كل هذه المخاطر التي كانت تحيق بهؤلاء الحجاج عبر هذا الطريق، لم تكن لتوهن عزيمتهم عن المسير إلى بلاد الحجاز لآداء هذه الفريضة العظيمة، ولم تكن تنقص عدد من يذهب إلى الحج كل عام، حيث كان ضحايا هذه الرحلة يعدون في مصاف الشهداء في سبيل الله، وكان أكثر الحجاج من الشباب الأقوياء، وقد يكون من بينهم نساء كن يرافقن أزواجهن في رحلة الحج إلى بلاد الحجاز[١٢٦]. ولعل أهم محطات هذا الطريق:

١ – **التاكة:** وقد ورد في دراسة لدي. س. كمنج D. C. Cumming بعنوان: "The History of Kassala and the Province of Taka" أنه في عام ١٨٤٠ قام المصريون ببناء قلعة تحيط بمنطقة استيطان البجاة. وكان يطلق على الإقليم برمته اسم تاكة[١٢٧]. وبالفعل فإن العشرين عاما الأولى من الحكم المصري لإقليم تاكا كان مجرد احتلالاً عسكرياً للإقليم، والذي لم يُعد بالعائد المادي الملموس على الجيش المصري أو على السكان المحليين. وبعد أن أدرك البجاة صعوبة مواجهتهم للقوة العسكرية المصرية، عملوا على تجاهل هذا الوضع، وتفادوا الحكومة قدر ما استطاعوا من خلال اللجوء للحياة البدوية في التلال المنتشرة في الإقليم[١٢٨].

ولما تأسست مديرية التاكا في عام ١٨٤٠م[١٢٩]، كان عربانها يفرّون، ويلتجئون بمنطقتي نفوذ سواكن ومصوّع هرباً من الضرائب والتكاليف الحكومية الأخرى، فرأي محمد على أن يطلب من الباب العالي ضمّها للسودان نظير نسبة تدفع من جماركها لخزينة جدة، ووافقت حكومة الأستانة على هذا الطلب، وبذلك قلّت الصعوبات الإدارية، التي كان يواجهها مدير مديرية التاكا وحكمدار السودان. وتطوَّرت سواكن في زمن الأتراك، فأصبحت محافظة مستقلة تعرف باسم محافظة سواحل البحر الأحمر، وتضم سواكن ومصوع والتاكا وباقي سواحل البحر الأحمر لحد بربرة، التي هي آخر حدود الحكومة التركية..

١٢٦المصدر السابق، ص٣٢٦.

١٢٧Dionisius A. Agius, The Rashayda: Ethnic Identity and Dhow Activity in Suakin on the Red Sea Coast, Northeast African Studies, Vol. 12, No. 1 (2012), p. 216.

١٢٨D. C. Cumming, THE HISTORY OF KASSALA AND THE PROVINCE OF TAKA, Sudan Notes and Records, Vol. 20, No. 1 (1937), p. 29.

– للمزيد: راجع الدراسة كاملة ١–٤٥.

والجزء الثاني منها: – Sudan Notes and Records, Vol. 23, No. 1 (1940), pp. 1-54

١٢٩وبعد الفتح المصري للسودان وضم الأراضي السودانية للإدارة المصرية كوّنت الحكومة مديرية التاكا في كسلا. حاولت الحكومة جمع الضرائب من البجا، فرفع البجا شكوى إلى والي جدة العثماني باعتبار أنهم تابعون له وليس لحكومة مصر. أقنع والي مصر والي جدة العثماني بعدم جدوى تبعية البجا لأرض الحجاز، وطلب منه السماح بتصدير الماشية لمصر عن طريق سواكن، حيث صدرت ثمانية آلاف رأس ماشية. بل إن السلطان العثماني وافق على ضمَّ سواكن لحكومة مصر، على أن تدفع الحكومة المصرية من إيراد جمرك سواكن ٥٠% من إيراد الجمرك قبل ضمها لمصر، وكذلك تدفع الحكومة المصرية لوالي الحجاز وشيخ الحرمين ٧٥٠٠ كيس سنوياً لعون ولاية الحجاز. بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، مرجع سابق، ص٢٥١.

فصدر قرار فصل السودان الشرقي في عهد الخديوي إسماعيل ١٨٣٠-١٨٩٥م ، وهو يشمل محافظتي مصوع وسواكن ومديرية التاكا، وعين ممتاز باشا محافظاً عليها[١٣٠].

يشير بوركهارت إلى أن بلدة التاكةTakka[١٣١] تتميز الطريق الذي يخرج منها في اتجاه سواكن بوجود سلاسل جبلية، وهي تمتد في إتجاه الجنوب الشرقي، ويقدر ارتفاع هذه السلاسل الجبلية تقريباً حوالي ألف قدم، إلى ثلاثة آلاف قدم، ويعيش في المنطقة التي توجد بها هذه الجبال جماعات تنتسب إلى قبيلة الهدندوة،[١٣٢] ويزعم الهدندوة بأنهم في الأصل ينتسبون إلى أحد أشراف مكة [١٣٣]. وتعتبر قبيلة الهدندوة أكبر قبيلة بجاوية بالسودان، ولا يتفوق عليها في الغني أو كبر مساحة الأرض وكثرة الأبل والمواشي غير قبيلة بني عامر. واشتهر الهدندوة بالتعصب الديني وكراهية كل من لا يدين بالإسلام سواء أكان نصرانياً أم يهودياً أم وثنياً، وهم يطلقون عليه لفظ الكفر[١٣٤]. وفي رأي أخرين أن الهدندوة ينتسبون إلى أصل بجاوي لنسل حام بن نوح عليه السلام. وقد اختلط الهندندوة بالعرب عن طريق المصاهرة والزواج [١٣٥].

وتنتشر في هذه المنطقة المروج ومراعي الكلأ. وعبر هذا الطريق تمضي القوافل القادمة سواكن محملة بالملح، والملح يُعد من أهم السلع التي تقوم عليها التجارة في منطقة التاكة.[١٣٦] ويجلب الملح من جزيرة سواكن[١٣٧]، ويصدره تجار التاكة إلى عطبرة، وإلى قبائل البدو المجاورين، الذين يسكنون بالقرب من التاكة ممن لا يوجد لديهم الملح[١٣٨]. وبعد ذلك بعدة كيلومترات يقع أحد الأودية، وهو يعج بالأشجار، ثم من بعده توجد وديان تكثر بها السيول الجارفة، التي يكثر ظهورها خلال موسم المطر. ويتميز الطريق

١٣٠المرجع سابق، ص-ص١٨٧-١٨٨.

١٣١ولمزيد من الزراية يقارن بوركهارت بين أهل سواكن والتاكا (وأهل سواكن-كأهل التاكا-لا يعرفون لقرى الضيف معنى، وتنتشر هناك المواخير انتشارها في أي ناحية من نواحي النوبة) عمر عبد الله حميدة: سواكن في رحلات بوركهارت، مرجع سابق، ص٢١٢.

١٣٢فالهدندوة أبناء محمد المبارك، والدا أحمد باركوين، جدة الهدندوة الذي تزوج من فتاة عربية بسواكن. كذلك الأمرأر الأتمن مناج زواج شيخ عرب القواسمة عجيب بن عبد الله جماع من فتاة من قبيلة الفاضلاب الأمرأر. والمعروف أن معظم قبائل البجا تنسب نفسها إلى العرب، سواء أكانوا من الهدندوة أو من الأمرأر أو من البني عامر. فتكوّن مجتمع بمواصفات حضارية محدّدة عرف بالمجتمع السواكني، سيطرة على تجارة السودان الداخلية والخارجية (الصادر والوارد) انظر: بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، مرجع سابق، ص-ص١٤١-٢٤٢.

١٣٣وللمزيد عن أصل قبائل وجماعات الهدندوة وعلاقاتهم بأشراف مكة، انظر:

Crowford: The Fung Kingdom of Sennar, P. ١٢٢.

١٣٤محمد صالح ضرار: تاريخ شرق السودان ممالك البجة قبائلها وتاريخها، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولي، ٢٠١٢م، ص:٤٨٤.

١٣٥وحسب أحد الروايات السودانية التي يرويها الفحل الفكي الطاهر أن رجلاً من أشراف الحجاز كان قد هاجر إلى بلاد البجة واسمه محمد هداب، تزوج هذا الشريف أحد الأميرات من بيت الملك شكايتل، وأنجب منها طفلاً يدعي محمد المبارك وأطلق عليه الهدندوة اسم محمد مباركوين، وهو يُعد جد الهدندوة. للمزيد انظر: الفحل الفكي الطاهر: تاريخ وأصول العرب بالسودان، تحقيق عمر فضل لله، دار المصورات لنشر، الخرطوم، الطبعة الأولى، ٢٠٠١٥م، ٤١٠.

١٣٦عن تجارة الملح انظر أيام سلطة الملح: مارك كيرلانسكي: تاريخ الملح في العالم، الإمبراطوريات، المعتقدات، ثورات الشعوب، والاقتصاد العالمي، ترجمة أحمد حسن مغربي، عالم المعرفة (٣٢٠)، سلسلة كتب ثقافية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر ٢٠٠٥م، ص-ص٥٣-٦٦.

١٣٧فيأكل الأطفال وفقراء الناس في سواكن المحار المنتشر المسمى باسم السرمباق (ويزعمون أنه دواء للدسنتاريا)، ويصدرونه للحجاز إلى جانب اللحوم والألبان. عمر عبد الله حميدة: سواكن في رحلات بوركهارت، مرجع سابق، ص٢١٣.

١٣٨رحلات بوركهارت: ص٣٢٨.

من التاكة إلى سواكن بأن تربته ذات طبيعة رملية، وينمو بها أنواع من البلوط شديد الشبه ببلوط بلاد في بلاد الشام. كما أنه يتميز بوجود أرض صخرية، تنمو فيها أنواع من شجر المرو الدقيق الحبيبات في طبقة سميكة تتخلل الحجر الرملي[١٣٩].

٢ – وادي لادو: ثم تعبر القوافل وادياً منخفضاً يمتد في اتجاه الغرب، وهو يعرف باسم وادي لادو، وهو يتميز بكثرة أشجار الدوم، والمراعي الخضراء، وتسكن به جماعات من قبائل الهدندوة، وهم يحصلون على الماء خلال موسم الصيف من العيون والآبار. ويتميز هذا الوادي بوجود الصخور التي يخرج منها النبات في شتى أرجاء الوادي، ثم تمتد به سلاسل من التلال في اتجاه الشرق[١٤٠]. وبعد الوادي يوجد سهل تغطيه الأشجار الشوكية الكثيفة، وتكثر به إناث طيور النعام التي تتميز عن الذكور، لأن لها ريشاً لونه أسود، وتكثر بهذا السهل بعض الجبال، ثم تجد القافلة بعد هذا السهل بركة كبيرة كانت تتجمع بها مياه الأمطار[١٤١].

٣ – وادي عدي: ثم تصل قافلة الحجاج بعد ذلك إلى هذا الوادي الذي توجد به العيون والآبار التي تملأ بمياه المطر، وتكثر به أشجار الدوم والشوك[١٤٢]. وكان يسكن بهذه المنطقة جماعات من قبائل الهدندوة، وكانت بين هذه القبائل وجماعات البشاريين نزاعات دائمة[١٤٣] ربما بسبب المراعي، أو شيء من قبيل ما يحدث في العادة بين القبائل البدوية[١٤٤] ويبلغ عرض الوادي حوالي ثلاثة أميال، أو أربعة، وأرضه شديدة الخصوبة تقوم الزراعة هناك على مياه الأمطار. ولا توجد بهذا الوادي تلال، وإنما يسمونه وادياً لانبساط أرضه التي تصير في الشتاء قاعاً للسيول الجارفة بسبب الأمطار التي كانت تسقط على هذه المنطقة[١٤٥].

ثم تتجه القافة نحو الشمال الشرقي، وتوجد هناك جماعات الهدندوة، يزرعون الذرة[١٤٦] والقطن، وتتميز المنطقة بكثرة النباتات والمزروعات، ربما أكثر من غيرها في باقي الطريق، وربما ذلك أكثر مما يزرع على ضفاف العطبرة، وذلك حسب وصف بوركهارت. وتكثر في هذه المنطقة أشجار السنامكي، وهي شجرة يكثر وجودها في إقليم كردفان، أكثر من غيره من الأقاليم، ويبلغ طولها حوالي أربع أو

١٣٩المرجع السابق نفسه والصفحة.

١٤٠المرجع السابق نفسه والصفحة.

١٤١المرجع السابق، ص٣٢٨ – ٣٢٩.

١٤٢وللمزيد عن التنوع النباتي وما يرتبط بالأشجار وتنوعه في مناطق تلال البحر الأحمر بالسودان انظر: لايف مانجر (وآخرين): البقاء مع العسر الحياة الرعوية للهدندوة في تلال البحر الأحمر، مركز البحوث العربية، دار الأمين للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولي، ١٩٩٩م، ص٨٣ وما بعدها.

١٤٣وللمزيد عن قبائل البشارية (البشارياب) أصلهم ونسبهم، انظر لايف مانجر: المرجع السابق، ص-ص٢٢٠-٢٢١.

١٤٤عن مهنة الرعي في إفريقيا، انظر الرعاة: كولن. م. تيرنبل: من الشعوب الإفريقية، ترجمة عبد الفتاح محمد حمدي، ومراجعة، محمود فتحي عمر، كتب سياسية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ص-ص٥١-٦٢.

١٤٥رحلات بوركهارت: ص٣٢٩.

١٤٦طعام أهل سواكن جلُّه من الذرة لا سيما البدو، فقد رأي بوركهارت في سوقها كيزان الذرة معروضة للبيع، ولا غذاء لفقراء سواكن سوى هذه الكيزان يأكلونها بالسمن. عمر عبد الله حميدة: سواكن في رحلات بوركهارت، مرجع سابق، ص٢١٣.

خمس أقدام، ثم ينتهي الحجاج في نهاية هذا الوادي عند بركة ماء، ينالون هناك قسطاً من الراحة بعد سفر طويل، وشاق يقارب نصف اليوم[١٤٧].

ويشير بوركهارت إلى أنه كانت تحدث في كثير من الأحيان نزاعات بين رئيس قافلة الحج وتجار سواكن حول الطريق، الذي يجب على القافلة أن تسلكه. ثم يمضي الحجاج الى طريق توجد به غابة يكثر بها شجر السيال، ففي هذه المنطقة يوجد طريقان يؤديان إلى جزيرة سواكن، أقربهما الطريق الذي يتجه شمالاً، ثم شرقاً، وهو يقع في منطقة جبلية، وعرة، يسكنها البدو، وتكثر فيها الآبار، لكنه طريق شاق للقافلة[١٤٨]. أما "الطريق الآخر"، فهو أكثر انبساطاً، لكنه أطول من الطريق الأول بمسيرة يومين، وفي بعض الأحيان يصر رئيس القافلة على السير في الطريق الثاني، وذلك تيسيراً على الإبل التي كانت ترافق القافلة، فرغم طوله إلا إنه مريح للإبل، والتي كانت ترهقها الأحمال الكبيرة التي على ظهورها طوال الطريق، بينما كان تجار سواكن يفضلون أن يسلكوا الطريق الأول[١٤٩]. ويذكر بعض الباحثين أن المسلمين الأحباش درجوا على نقل تجارة الشرق الأقصى إلى مصر، حيث كانوا ينقلون البضائع، التي يستجلبها العرب بحراً من عدن إلى زيلع، وبراً باتجاه الشمال إلى عيذاب، حيث ينتظرها التجار لنقلها إلى قوص ثم إلى القاهرة. هذا إلى جانب أن بعض التجار المتجوَّلين كانوا يتنقلون بمحاذاة طرق القوافل إلى سواكن، حيث تنتهي بهم الرحلة هناك، ومن ثم يجتازون السهل السوداني إلى النيل النوبي، ثم الانطلاق برّاً محمّلين بالمتنوَّع من المنقولات والعروض التجارية صوب القاهرة [١٥٠] ولم يستقر التجار العرب في سواكن فحسب، بل توغَّلوا إلى داخل السودان لجلب السلع التجارية منها، وبيع ما لديهم من سلع. والدليل على ذلك أنهم استطاعوا أن يؤسَّسوا عام ٨٧٩هـ/١٤٧٤م مدينة أربجي التي تقع على الشاطئ الغربي للنيل الأزرق، وجعلوها مستقراً ومركزاً للتجارة، ولا سيما تجارة الرقيق، زيادة على مركزهم في مدينة سوبا عاصمة مملكة علوة المسيحية[١٥١].

٤ – وادي الدوم: ويتجه الحجاج بعد ذلك الى "وادي الدوم"، وهي منطقة يكثر فيها نمو أشجار الدوم، وهناك يصطاد العبيد الجراد ليأكلوه، ثم كانوا يجمعوا عشباً يشبه أوراق الملوخية، وكانوا يسلقونه، ثم يصنعون منه نوعاً من الحساء، ثم يضيفونه إلى العصيدة، التي كانت تُعد أهم طعام يتناوله التجار والحجاج السودانيون. وتنتشر هذه العصيدة في بلاد شمال إفريقيا، وهي عبارة عن عجينة من دقيق الذرة، أو الدخن، تختلط بالسمن[١٥٢] والبصل، أو البامية، وتكون ذات طعم طيب إذا كان الدقيق تم

١٤٧المصدر السابق، ص٣٢٩.

١٤٨المصدر السابق، ص٣٢٩.

١٤٩المصدر السابق نفسه والصفحة.

١٥٠انظر: سيف الإسلام بدوي بشير: سواكن الملاحة وتداعيات الحركة التجارية في البحر الأحمر من القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي، مرجع سابق، ص-ص١٢٥-١٢٦.

١٥١السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م-١٩٢٣م)، مرجع سابق، ص١٦٦.

١٥٢ويمثَّل السمن غذاءً رئيساً للسكان كذلك (فجميع الطبقات تأكله، وإن أشدهم فقراً لينفق نصف دخله اليومي ليحصل على قدر كبير من السمن يطبخ به غذاءه ويشرب منه في فطوره ربع رطل على الأقل. عمر عبد الله حميدة: سواكن في رحلات بوركهارت، مرجع سابق، ص٢١٣.

طحنه جيداً[153]. ويحمل حجاج سواكن القادمين من إقليم كردفان[154] دقيق الدخن، وهو معروف عندهم أكثر من الذرة، كما يحمل أكثر التجار أحجارا ليطحنوا بها الذرة[155] وكان عبيدهم يضطرون للسهر طوال ساعات الليل في طحن الطعام، ويبقون على هذا الحال بنظام التناوب حتى صباح اليوم التالي[156]. ويشير بوركهارت إلى أن بعض الحجاج الذين رافقوه في قافلة سواكن، كانوا يمؤون جريانهم أثناء إقامتهم في التاكة بدقيق الذرة المجهز بالطريقة التي وصفت آنفاً، وهو يصلح أيضا لصنع العصيدة، وهو عندهم أفضل من دقيق الدخن[157].

٥ – وادي أرواد: ثم تسلك القافلة إلى ثغر سواكن في واد تكثر فيه الجبال، وهو واد يُعرف باسم "وادي أرواد"، وتُعد الجبال هناك من أهم الجبال في سودان وادي النيل، وهي تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وتكثر بهذا الوادي الصخور الوعرة على الجانبين، ويتفرع من هذه المنطقة طريق يتجه نحو الشمال قرب الساحل على طول الطريق إلى المياه القصير شرقي التخوم المصرية[158]. وبعد عدة كيلو مترات يبلغ الحجاج سهلاً مرتفعاً، لكنه ضيق، وتكثر في رمال هذه المنطقة أشجار السنط، وتوجد في وادي أرواد أشجار الدوم الضخمة، وكان الحصول على الماء هناك أمراً شاقاً لا يكفي الحجاج، أو الإبل، ويحاول الحجاج العثور على أحواض ماء المطر الباقية من الموسم الماضي عند منحدر الجبل في هذا الوادي[159].

وقد أشار الرحالة بوركهارت إلى أنه كانت تسكن وادي أرواد جماعات من قبيلة الهدندوة، كانت قد آثرت الإقامة في الجبال والتلال المحيطة، وذلك لأنهم كانوا يخشون النزول إلى السهل حتى لا يتعرضوا لاعتداءات من جماعات البشارية[160]. وكان على الحجاج أن يصعدوا جبلاً بهذا الوادي حيث ينبسط الوادي بعد ذلك، وهي منطقة تسكنها أيضا جماعات الهدندوة، التي كانت تقطع الطريق على القوافل لنهب ما أمكنهم الحصول عليه منهم. ثم يتجه الحجاج إلى الغابات المجاورة لعلهم يجدوا في داخلها الحماية من اللصوص وقطاع الطرق، ثم يصلون بعد ذلك بقعة خضراء يصفها بوركهارت بأنها: "كأنها جنة من جنات عدن"، وهي تبعد عن سواكن مسيرة ستة أيام، وهناك تتصل بقاع السيل الكبير وديان جانبية كبيرة يكثر بها الأشجار[161].

١٥٣رحلات بوركهارت: ص: ٣٣٠.

١٥٤عن إقليم كردفان انظر انتشار الإسلام في كردفان ودار فور: شوقي الجمل: تاريخ سودان وادي النيل حضارته وعلاقاته بمصر من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٨م، ص:٢٣٦-٢٣٧.

١٥٥وكما يروي بوركهارت أما السوق الرئيسة في سواكن ففي ساحة مكشوفة في القيف (تعرض بها نفس السلع التي تعرض في سوق شندي، والتعامل في الصفقات الصغيرة يتم بالذرة، يكيلونها بالحفنة وبالمد المعاير المستعمل في شندي. عمر عبد الله حميدة: سواكن في رحلات بوركهارت، مرجع سابق، ص:٢١٠.

١٥٦المصدر السابق، ص: ٣٣٠.

١٥٧المصدر السابق نفسه والصفحة.

١٥٨المصدر السابق، ص: ٣٣١.

١٥٩المصدر السابق، ص : ٣٣٠.

١٦٠المصدر السابق، ص: ٣٣٢.

١٦١المصدر السابق، ص : ٣٣٤

٦ – جبل لنقاي عريان لنقاي: ثم يعبروا طريقاً جبلياً يُعد ظاهرة تضاريسية مميزة في شرق السودان، ويكثر هناك وجود مراعي الكلأ، خاصة في الجانب الغربي، حيث تكثر هناك الآبار والينابيع الكبيرة، ولعل أهمها منبع نهر المقرن، ويقع في أقصى الغرب من جبل لنقاي، وذلك لأن مجراه لا يقطع طريق القوافل بين عطبرة وسواكن[١٦٢]. ويعد جبل لنقابي موطناً لجماعات قبائل الهدندوة وحدهم، وهم يأتون اليه هرباً من اعتداءات البشارية، وإلى هذا الجبل يرسل أهل سواكن والهدندوة البعيدون عنه مسيرة أيام المواشي في الصيف، حيث به المراعي والكلأ. ويعد هذا الجبل بمثابة حد مناخي فاصل شرقي السودان[١٦٣].

٧ – وادي عسويت: تأتي قافلة الحجاج إلى هذا الوادي الذي يقع قرب بركة ماء حيث يجتمع فيها ماء الأمطار بين الصخور، وهي عميقة، وبعيدة الغور. بينما البرك الأخرى أقل عمقا وأكبر مساحة، ثم تخرج القافلة في الوادي في اتجاه شمال غرب، فوق منطقة سهلية ذات شجيرات قصيرة[١٦٤].وكان على القافلة أن تعبر وادياً تكثر فيه شظايا الصخور الضخمة، ثم يتجه الحجاج غرباً بجوار أحد الجبال الذي توجد به بئر وبركة ماء تكونت من ماء الأمطار. وهناك يرعى الهدندوة إبلهم وأغنامهم، وتبدو الأشجار منتشرة على قمة هذا الجبل، وتوجد به أخاديد لا تحصى تنحدر منها السيول إلى السهل في موسم المطر، وهي تكون ما يشبه الشلالات والمساقط الكثيرة، وتكثر في هذا السهل أشجار السدر[١٦٥].

٨ – وادي عسير: وبعد عبور وادي عسويت كان على القافلة أن عبر وادياً آخر، يعرف باسم "وادي عسير"، ولعل هذه التسمية ترجع لتأثيرات حجازية[١٦٦] وهو على اسم جبال عسير بأرض الحجاز. وهذا الوادي تحفه من الشرق تلال غير مرتفعة، والسهل هناك تكثر به الأشجار، وكان العشب الذي جف واحترق هناك، يملأ المنطقة التي تسكن بها جماعات من الهدندوة، وهم يعيشون على رعي القطعان الكبيرة من الإبل[١٦٧].

٩ – وادي شنكرة: يصل الحجاج بعد ذلك إلى واد تكثر فيه أشجار السنط الكبيرة، وهي ذات ارتفاعات كبيرة، وتتميز بظلالها الوارفة، وكان العبيد[١٦٨] يحضرون الماء من الجبل القريب من هذا الوادي، وهو

١٦٢المصدر السابق، ص: ٣٣٥

١٦٣المصدر السابق، ص: ٣٣٥

١٦٤المصدر السابق، ص: ٣٣٦

١٦٥المرجع السابق نفسه والصفحة.

١٦٦ولعل التأثيرات الحجازية ستأتي دوماً من تعدد المناشط الاقتصادية وازدهار الحركة التجارية بين الطرفين: فقد عرف مدينة سواكن نظام البورصات والوكالات والبيوتات التجارية منذ حقب مبكرة في استقبال الواردات المستجلبة من بلاد الهند والعراق والديار المصرية وأوروبا، والمشتملة على التمور والأقمشة والملبوسات القطنية والكتانية إلى جانب الحريرية، والتي احتكر تجار سواكن تجارتها والترويج لها تجارياً بالداخل، وبأسواق الحجاز خارجياً. انظر: سيف الإسلام بدوي بشير: سواكن: الملاحة وتداعيات الحركة التجارية بالبحر الأحمر، مرجع سابق، ص١٣٠.

١٦٧المصدر السابق، ص :٣٣٦.

١٦٨كات سواكن في أيام بوركهارت سوقاً من أهم أسواق الرقيق في شرق إفريقيا، وقدّر ما يردها من شندي وسنار بين ألفين إلى ثلاثة آلاف. ولا يضارع سواكن في هذه التجارة، في رأي بوركهارت، (غير إسنا وأسيوط في مصر، ومصوّع من مدن الحبش). ومنها–غير هذه المدن الأربعة–مضافاً إليها ثغور الحبشة الجنوبية وساحل الصومال وموزمبيق–يصل مصر وبلاد العرب مدد سنوي من العبيد يقدَّر بخمسة عشر ألفاً أو عشرين جلبوا من قلب إفريقيا ، عمر عبد الله حميدة: سواكن في رحلات بوركهارت، مرجع سابق، ص٢٠٩.

على مسيرة ساعة، وكان العبيد يجمعون هناك العشب حتى يصنعوا به العصيدة، التي كانت تعد الطعام الرئيس لقافلة الحج إلى جزيرة سواكن[١٦٩]. ويذكر ابن سليم الأسواني في كتابه أخبار النوبة ومقرة وعلوة والبجة والنيل:"من أن شنقير طريق إلى سواكن وباضع ودهلك، وعبَر هذا الطريق من نجا من بني أمية إلى باضع، وكان هذا طريق يربط بين سواكن وباضع وجزر دهلك من ناحية، وبين سواكن والنيل من ناحية أخرى وكانت مجردً ميناء صغير محدود النشاط سواء في التجارة مع بلاد العرب، أو في الوساطة بين منطقة الظهير والمباشر لها، حيث الدويلات المسيحية، وبين ميناء باضع، الراجح أن هذا الطريق كان مستخدماً لنقل السلع من الداخل إلى سواكن، ثم إلى باضع لصلاتها القوية بالتجارة الدولية، لأن سواكن كانت مرسيً صغيراً لا تمرّ به السفن الكبيرة القادمة من الهند، وإن كانت ترسو فيه بعض السفن القادمة من جدة واليمن. وقد ذكر أسامة بن منقذ أن جدة كانت تأتيها التجارة من سواكن وزنجبار والهند[١٧٠].

١٠ – **وادي شنتيراب:** ثم تخترق قافلة الحجاج منطقة يكثر بها الأشجار، وكذلك توجد بها مجاري السيول، التي تفرغ ماءها في الرمال حتى يبلغوا "وادي شنتيراب". وفي هذا الوادي نبع ماء متدفق، لكنه مالح زعاق يتجمع في حوض، وهو لا يصلح للشرب، إلا إذا اختلط بماء المطر، وتكثر حول هذا النبع صخور الجرانيت الأشهب، التي لا يوجد لها مثيلاً إلا في تلال " قوز رجب"، ويصير هذا الوادي في موسم المطر الى منطقة سيول عارمة، وهو لا يقل عن ثلاثمائة ياردة عرضاً، وحوالي ١٢ قدماً طولاً[١٧١].

١١ – **جبل قنقراب:** ثم تصل الرحلة إلى المنطقة التي يقع فيها ذلك الجبل المعروف باسم "جبل قنقراب"، وهو جبل يقع وسط أرض سهلية تسكن بها جماعات من الهدندوة، وهذه الجماعات هي التي تقوم بإمداد سكان جزيرة سواكن باللبن والزبد في شهور الصيف، وذلك حين ترحل عنها الماشية. وهذه المنطقة قليلة الماء، وبها يقوم تجار سواكن بإرسال إبلهم الى الجبل لإحضار الماء[١٧٢]. وبعد هذه المنطقة تكون هذه قافلة الحج قد صارت على مقربة من ميناء سواكن، ونهاية الرحلة الطويلة، ويكون الحجاج على بعد بضعة كيلو مترات. ولما يصل الحجاج إلى ميناء سواكن يبحثون عن مركب تبحر بهم بعد ذلك إلى ميناء جدة، وهو الميناء الرئيس لمكة المكرمة.

سادساً: سواكن ما بين بوركهارت وتاريخها:

فيذكر بوركهارت: " أما مباني الجزيرة فمشيَّدة من طابق أو طابقين مشابهة لمباني جدة، وحتى من الأتراك الجدد وزيُّهم زيّ حضر الحجاز، وطباعهم وعاداتهم هي طباع أهل الحجاز وعاداتهم[١٧٣] فكل من

١٦٩بوركهارت: المصدر السابق، ص ٣٣٦.

١٧٠السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م-١٩٢٣م)، مرجع سابق، ص١٦٢.

١٧١رحلات بوركهارت: ص ٣٣٨.

١٧٢المصدر السابق: ص ٣٣٩.

١٧٣عمر عبد الله حميدة: سواكن في رحلات بوركهارت، مرجع سابق، ص-ص٢٠٤-٢٠٥.

استوطن وسكن سواكن مما آتي عليها تطبع بطباع مكوناتها المحلية ذات الصلة بالساحل الشرقي للبحر الأحمر وثقافتها الحجازية.

تبعت سواكن منذ احتلالها من قبل العثمانيين للأستانة مباشرة، ثم تبعت لإمارة جدة[١٧٤] وهذا ما كان حالها حينما قدم إليها بوركهارت. فأما وجبات الأغا فتتمثَّل في جمع المكوس، التي تُحصل من التجارة بالتزام سنوي يدفعه في جدة كل عام يقدَّر بحوالي ٣٠٠ ريال أما محاولات الدعوة الوهابية كسب الأهالي وتجنيدهم في صفوفها فقد باءت بالفشل. فبعد استيلاء الوهابيين على مكة أوفدوا مبعوثين إلى سواكن لإقناع القوم باعتناق الوهابية، ولكن لم يؤذن لهم بالمضيَّ في رحلتهم إلى القيف، واضطروا إلى ركوب البحر عائدين بعد حين. وتبرز المفارقة أيضاً–فيما ذكره بوركهارت–أنه لدى ذهاب بعض أهل سواكن للتجارة في جدة–إبان العصر السعودي–ألزموا بتغطية رؤوسهم بالمناديل على نحو ما يفعل البدو والأعراب، لأن سعوداً زعيم الدولة رأي بمكة بعضهم قد بيَّضوا شعورهم الكثيفة، ولعله يقصد بذلك دهنوها وضفروها، وهي عادة بجاوية منتشرة إلى وقت قريب. فسواكن مدينة تجارية محضة وليس للسواكنية مهنة غير التجارة، سواءً بالبحر أو مع السودان، وهم يتاجرون مع ثغور الحجاز واليمن، ولكن أهم الموانئ التي يتعاملون معها هي جدة والحديدة. وبسبب هذا النشاط التجاري مع جدة خاصة كان لأهل سواكن حيّ خاص بهم في جدة يشبه منازلهم بقيف سواكن. أما أهم السلع التي يصدَّرها أهل سواكن–كما ذكرنا من قبل–لموانئ الجزيرة العربية، فهي العبيد والذهب والتبغ واللبان وريش النعام، قادمة إليهم من أسواق شندي وبربر وسنار. ولكن، وكما لاحظ بوركهارت، لا تقلع سفينة في سواكن إلى جهة ساحل بحر العرب دون أن توسق ذرة من التاكا. إلى جانب هذه السلع تصدّر الجلود والجربان المدبوغة التي تباع في حواضر الحجاز وريفه فثمن القربة المصنوعة من الجلد في جدة يعادل ثمن الشاة في سواكن. واندهش بوركهارت للأرباح الوفيرة التي تدرّها هذه التجارة تجارة الجلود لكون الماشية نادرة في الحجاز، وللحاجة الماسة للأجربة في سقيا الحجّاج. وإلى جانب الجلود نشطت تجارة السمن الذي اعتمدت عليه جدة ومكة في غذائها، ومعظمه يجئ من سواكن ومصوّع. وتصدَّر سواكن أيضاً الحُصُر المصنوعة من الدوم، وتستعمل في جميع أنحاء الحجاز واليمن، حيث الدوم نادر وحيث لا ينزل إلى كسب الرزق بالعمل اليدوي إلا القليلون، فتفرش بها أرضية المساجد في مكة وجدة، وتجدَّد سنوياً بفضل هبات الحجاج. تصدر الخيول من سواكن وسوقها الرئيسية ميناء الحديدة، واشتهر شريف مكة بشغفه بشراء الفحول الإفريقية من الخيل لتزويد فرسانه. فالجواد الذي يساوي في شندي خمسة وعشرين ريالاً، يباع في الحديدة بمائة أو مائة وخمسين، ولكنها تجارة تحفُّها المخاطر بسبب سوء وسائل النقل. وكذلك نشطت تجارة الهجن لا سيما البشاري منها، والتي إن سلمت في الوصول إلى جدة من عاديات البحر والمرض بيع الهجن منها بستين ريالاً إلى ثمانين، وهي ثمانية أضعاف ثمنها بسواكن، على أن نصف

---

١٧٤ نهض نشاط أهل سواكن بالتجارة في السودان عبر تلك القرون التي كانت سواكن فيها عاصمة المال والتجارة والحضارة. ولسواكن تجارة مع جدة بأرض الحجاز، وذلك لأن سواكن كانت تتبع ولاية الحجاز العثمانية والتي عرفت بإيالة الحبش، حيث تضم سواكن ومصوّع. انظر: بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، مرجع سابق، ص:٢٥١.

الهجن المشحونة على الأقل ينفق في الطريق ويكلَّف نقل الهجين منها عشرة ريالات[١٧٥]، فوفد على سواكن تجار اليمن والحجاز وأقاموا فيها، بل أن عميد تجار بندر سواكن محمد بك الشناوي كان حجازياً، وهو صاحب وكالة الشناوي الشهيرة، وكانت له صلات تجارية مع الهند والشرق الأقصى، وله أسطول من السفن التجارية، وهو صاحب القصر الشهير بسواكن الذي يتكون من ٣٦٥ غرفة[١٧٦].

فكانت موانئ السودان خاصة سواكن تستقبل السلع من إفريقيا وتتولَّي تصديرها، فاشتهر تجار سواكن الذين كانوا يجوبون أسواق السودان المختلفة في بربر وسنار وكردفان ودارفور.. فيجلبون الذهب والصمغ والتبغ وريش النعام والجلود والجياد الدنقلاوية، التي كانت تباع في أسواق اليمن بأسعار عالية، وكذلك كانوا يجلبون من التاكا الذرة. ولا تقلع سفينة من سواكن إلا وبها ذرة من التاكا، كما أشار إلى ذلك الفاسي بقوله: "إن غلاءً كان بمكة سنة سبع وتسعين وسبعمائة ودام كذلك أياماً يسيرة، ثم فرَّج الله على الناس قريباً بجلاب وصلت من سواكن". وبذلك كانت سواكن هي مخزن الغلال الذي يسعف أرض الحجاز في المجاعات وندرة الغذاء، كما كانت تصدَّر السمن والألبان إلى مكة، فقد ذكر ابن بطوطة: "أن الألبان والسمن تكثر في سواكن ومنها تجلب على مكة". كما كانت سواكن أيضاً تصدَّر الحصر أو السجاد المصنوعة من سعف الدوم المقل فتفرش بها المساجد في جميع أنحاء الحجاز واليمن، وكان الحاج لا يغادر مكة إلا وفي يده حصيرة سواكنية صغير يؤدّي فيها صلواته. وبذلك فإن سواكن، بجانب دورها الاقتصادي الكبير، كان لها دور حضاري واضح على ما حولها من بلاد وشعوب[١٧٧].

ولما اقتحم عبد الله بن أبي السرح دنقلا في عام ٣١هـ/٦٥١م حاول أن يجهز جيشاً لفتح بلاد البجة، ولكنه عدل عن ذلك لوعورة الطريق وقلة الماء، ولأن البجا أبدوا استعدادهم لدفع الجزية للمسلمين، فتركهم ثم هادنهم عبد الله بن الحبحاب. وقد أورد المقريزي ذلك بقوله: "وتجمع لعبد الله بن سعد ابن أبي السرح، في انصرافه من النوبة على شاطئ النيل، البجا، فسألهم عن شأنهم فأخبر أن ليس لهم ملك يرجعون إليه، فهان عليه أمرهم وتركهم، فلم يكن لهم عقد ولا صلح، وكان أول من هادنهم عبيد الله بن الحبحاب السلولي في أواخر القرن الأول الهجري.. على أن لا يقتلوا مسلماً ولا ذمياً، فإن قتلوه فلا عهد لهم" وأهم ما فيها هو أن يمنحوا المسلمين حق العبور والأمان في بلادهم. ولهذا ازداد النشاط التجاري والدعوي في بلاد البجا وعبر موانئهم الناشطة خاصة ميناء سواكن، وهذه الاتفاقية هي التي سارت عليها الدول الإسلامية المتعاقبة في تعاملها مع البجا"[١٧٨]. وقد شهدت بلاد البجا أحداثاً مهمة عند نهاية

١٧٥عمر عبد الله حميدة: سواكن في رحلات بوركهارت، مرجع سابق، ص–ص٢٠٦–٢٠٩. أما أبرز واردات سواكن فتجئ من جدة تلبية لحاجة الأسواق الإفريقية. يقول بوركهارت (إن تجار سواكن يشترون من جدة البضائع الهندية، كذلك الكماليات التي تَرُوج سوقها في سواكن كثياب النساء وحليّهن والأواني المنزلية، وشتى ألوان الطعام كالسكر الهندي والبن والبصل والبلح... كذلك يجلب من جدة الحديد لصنع الحراب والمدي). انظر: المرجع السابق، ص٢١٠.

١٧٦انظر: بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، مرجع سابق، ص٢٥١.

١٧٧عبد الباقي محمد أحمد كبير: سواكن منذ فجر الإسلام حتى العصر المملوكي، مرجع سابق، ص١٠٩.

١٧٨عبد الباقي محمد أحمد كبير: سواكن منذ فجر الإسلام حتى العصر المملوكي، مرجع سابق، ص–ص٨٨–٨٩. ذلك أن المسلمين الفاتحين لمصر ضاقوا ذرعاً بهجمات النوبة والبجا المؤَثِّرة على صعيد مصر ومعاهدة البقط أتاحت للمسلمين الانسياب نحو الجنوب، فأخذت موجات العرب تتدفَّق على هذه المنطقة كالسيل دون انقطاع، وأخذ نفوذهم يقوي، وعددهم يتكاثر جنوب أسوان، وكان وادي العلاقي وأرض البجا عامة جاذبة للقبائل العربية، فهاجروا إليها جماعات واستوطنوا أرض المعدن، حول مناجم الذهب. انظر للمزيد: المرجع السابق، ص–ص٨٧–٨٨.

الدولة الأموية، ذكرها المسعودي في التنبيه والإشراف: "...ووقع عبد الله بن مروان في عدّة ممن نجا معه على باضع من ساحل المعدن وأرض البجا، وقطع البحر على جدة من ساحل مكة، وتنقل فيمن نجا معه." وذكر بلوس Bloss أنه عثر على مقابر أولئك الأمويين على طول الطرق الذي سلكوه. ومما يزيد رواية المسعودي إيضاحاً، أن الأبحاث الأركيولوجية أثبتت وجود جاليات عربية"[١٧٩].

وفي العصر العباسي نتيجة لاتباع سياسة إبدال العنصر العربي بالفرس والأتراك، أدى إلى استياء العرب، ولجوئهم إلى الثورة وخاصة منذ القرن الثالث الهجري، ولكنهم هزموا فاضطروا إلى الهجرة لبلاد السودان.. وكان من الطبيعي أن تستهويهم الرغبة في الحصول على المعدن، فدخلت منهم جماعات مع مجموعات القبائل القحطانية والجهنية وغيرها إلى أرض البجا. وكانت قد دخلت إلى منطقة عيذاب وسواكن مجموعة من بني يونس، قبل وصول مجموعات ربيعة، ويبدو أن مجموعة بني يونس قد جاءت من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر إلى ساحل البجا عبر ميناءي سواكن وعيذاب، وكثر الوجود العربي في بلاد البجا، واشتد التنافس بينها في حكم المنطقة والسيطرة على أرض المعدن. ولم يمض وقت طويل حتى قامت الحرب بين بني ربيعة وبني يونس، واضطرت مجموعة بني يونس بعد هزيمتها على العودة إلى الحجاز عبر الطريق الذي جاءوا منه[١٨٠]. هذا التكاثر العربي في بلاد البجا، أدي إلى تقوية البجا عسكرياً، فقطعوا العهد الذي وقعوه مع الدولة الإسلامية في مصر في العهد الأموي، وقطعوا الجزية التي كانوا يدفعونها سنوياً وهي عبارة عن ثلاثمائة وستين جملاً، وكثرت اعتداءاتهم على المسلمين في صعيد مصر، الأمر الذي دفع بالخليفة المأمون العباسي، بإرسال حملة تحت إمرة عبد الله بن الجهم عام ٢١٦هـ/٨٣١م أمير مصر يومئذٍ، وهزم البجا، وطلبوا الصلح والأمان، فاستجاب له ابن الجهم وكتب وثيقته المشهورة. "وإن دخل أحد من المسلمين بلاد البجا تاجراً أو مقيماً أو متاجراً أو حاجاً فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم"، وهكذا أعطي عقد الأمان هذا المسلمين حق التنقل والاتجار في بلاد البجا، كما منح حق مرور الحجيج إلى الحجاز.. ووما هو جدير بالإشارة أن هذا الاتفاق ترجم إلى اللغة البجاوية، ترجمه اثنان من القرشيين من أهل الحجاز[١٨١] وقد يكونان تاجرين بين موانئ الشعيبة وسواكن وعيذاب، وهو دليل على مدي العلاقة القوية التي تربط بين بلاد البجا والحجاز[١٨٢].

١٧٩المرجع سابق، ص-ص٨٩-٩٠. "وكان مع مروان [بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في عام ١٣٢هـ] حين قُتل، ابناه؛ عبد الله وعبيد الله، وكانا وليّي عهده، فهربا فيمن تبعهما من أهلهما ومواليهما وخواصّهما من العرب ومن انحاز إليهم من أهل خراسان من شيعة بني أمية، فساروا إلى أسوان من صعيد مصر، وساروا على شواطئ النيل إلى أن دخلوا أرض النوبة وغيرهم من الأحابش، ثم توسّطوا أرض البجا مُيمَّمين باضع من ساحل بحر القلزم، فكانت لهم مع من مروا به من هذه الأمم حروب ومغامرات ، ونالهم جهد شديد وضرٌّ عظيم، فهلك عبيد الله بن مروان في عدة من كان معهم قتلاً وعطشاً وضُرّاً، وشاهد من بقي منهم أنواع الشدائد وضروب العجائب،...."

١٨٠عبد الباقي محمد أحمد كبير: سواكن منذ فجر الإسلام حتى العصر المملوكي، مرجع سابق، ص:٩١.

١٨١وهما زكريا بن صالح المخزومي من جدة وعبد الله بن إسماعيل القرشي، وهو ما يدلُّ على عمق الصلة ومعرفة العرب باللسان البجاوي. انظر: بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، ص:٢٤٠.

١٨٢عبد الباقي محمد أحمد كبير: سواكن منذ فجر الإسلام حتى العصر المملوكي، مرجع سابق، ص:٩٢-٩٤.

وعلى الرغم من وضوح هذه الاتفاقية، وأهميتها إلا إنها لم تعش طويلاً، فقد امتدت لحوالي خمسة وعشرين عاماً فقط، حيث خرقها البجا في عهد زعيمهم الجديد على بابا، على حسب رواية المسعودي في مروج الذهب ومعادن الجوهر ويبدو أن وفاة كنون بن عبد العزيز قد أضعف هذه الاتفاقية، ولم يلتزم بها على بابا، فأخذ في الاعتداء على العرب، ورفض دفع الجزية السنوية، وهاجمت جماعته الإقليم المصري، ونهبوه حتى مدينة إسنا. وكان ذلك في أيام المتوكل على الله بن المعتصم العباسي ٢٣٢هـ-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م الذي ولّي محمد بن عبد الله القمي على أسوان وقفط والأقصر وإسنا وارمنت وأمره بحرب البجا.. وقام بحربهم بحراً وبراً-للمرة الأولى عبر مياه البحر الأحمر-وبالفعل جاءت المراكب وأفرغت حمولتها عبر ميناء سواكن.. وقد قتل من جيش البجا في تلك الواقعة عدد لا يحصي، وكان ذلك سنة ٢٤١هـ/٨٥٦م. ثم طلب ملكهم على بابا الأمان من القمي، فأمنّه على أداء الخراج لما سلف وهي أربع سنين كان قد منها، وعلى أن يطأ بساط المتوكل في بغداد.. "وولّي المتوكل البجا طريق ما بين مصر ومكة" [١٨٣].

اتسم عهد المماليك بالقوة العسكرية البحرية، خاصة بعد ظهور الصلبيين في البحار الإسلامية، فأدى ذلك إلى تحوُّل طريق حجاج مصر والمغرب إلى ميناء عيذاب، بدلاً عن سواكن. لكن سواكن لم تفقد أهميتها، بل زادت عندما غزا أرناط الصليبي البحر الأحمر، وأراد غزو مكة والمدينة المنورة. كانت هذه الحملة الجريئة دبَّرها في نهاية القرن السادس الهجري ١٢م أرناط أمير أنطاكية، في العهد الصليبي لغزو الديار المقدسة في الحجاز... وكان أول أهداف الحملة هو السطو على ميناءي سواكن وعيذاب؛ أهم ميناءين بين قوص في صعيد مصر وأرض المعدن[١٨٤].

فزادت قوة الدولة الإسلامية كما زادت رقعتها، وفي عام ١١٧٢ فتح صلاح الدين بلاد النوبة ذات الأغلبية المسيحية، وفرض عليها اعتناق الدين الإسلامي. وكان استيلاء المسلمين على القدس مرة أخرى قد لفت انتباه القوى الأوروبية، وكان السبب الرئيس للحملات الصليبية، أو بالأحرى المحفز الأساسي الذي توارت ورائه الأسباب الاستعمارية الحقيقية. وشارك الكثير من المغامرين في الحملات الصليبية ومن بينهم رينو دي شاتيون Renaut de Chatillion، الذي استولى على ميناء العقبة بعد جهود متواصلة في فلسطين، وأعد أسطول على نفقته من أجل مهاجمة مكة والمدينة من جهة الساحل. وجاب أسطوله البحر الأحمر ونهب الكثير من الموانئ المهمة به، لكن لم يرد ذكر سواكن بين الموانئ التي قام بنهبها والاعتداء عليها، وهو ما يشير إلى عدم أهميتها في ذلك الوقت، كما أن استيلاء صلاح الدين على النوبة قد خفض تجارتها وأهميتها العابرة إلى سواكن١٨٥.

وهكذا فإن النصوص توقفنا على مدى الدور التجاري الكبير الذي كانت تقوم به سواكن في عصر المماليك، فكان ينقل منها الغذاء من ذرة وحبوب إلى الأراضي الحجازية. ونظراً لأهمية سواكن بالنسبة

١٨٣عبد الباقي محمد أحمد كبير: سواكن منذ فجر الإسلام حتى العصر المملوكي، مرجع سابق، ص-ص٩٤-٩٦.

١٨٤المرجع السابق،ص:٩٩-١٠٠.

١٨٥ J. F. E. Bloss, the Story of Suakin, Sudan Notes and Records, Vol. 19, No. (1936), pp. 279-280.

للأراضي الحجازية، فقد كانت سلطات الأشراف في مكة تمتد إلى سواكن، وإلى ذلك أشار ابن بطوطة. وهذه إشارة واضحة إلى أن سواكن كانت تتبع إدارياً وسياسياً وقضائياً لمكة المكرمة، وذلك لأهميتها الاقتصادية، وتقاربها الاجتماعي مع أهل الحجاز، ولم تتم تلك التبعية بالقوة العسكرية، وإنما تتم عن طريق المصاهرة، حيث تزوج الأمير أبو نمي أمير مكة أميرة من عائلة باصفار من الأرتيقا حكام سواكن. ثم انتقلت إليه إمارة سواكن عن طريق أخواله الأرتيقا، حكام سواكن، وذلك حسب النظام المتبع في وراثة العرش عند البجا. ولم تستطع سلطات المماليك في القاهرة الاعتراض على هذا الحكم، نظراً لاحترامهم الشديد لأشراف مكة الذين ينتسبون إلى الدوحة النبوية الشريفة[١٨٦].

تعتبر سواكن من أقدم الموانئ التي ظهرت في شرق السودان، وهي تقع بين ميناءي باضع وعيذاب، وأطلالها، اليوم توجد على مسافة سبعين ميلاً جنوبي بورتسودان، وهي تتكون من جزيرة ملاصقة للساحل ومن بَّر مجاور يقطنه البجا، والآن تستخدم سواكن ميناء لنقل الحجاج في موسم الحج إلى جدة. وقد شاركت سواكن عيذاب في تجارة البحر الأحمر إبّان ازدهارها، ويذكر ابن سعيد المغربي: "إن صاحب جزيرة سواكن وهو من البجا مسلم له ضرائب على مراكب الكارم، وكانت المراكب تفضَّل الرَّسو في سواكن من برّ العرب، لأن ميناء سواكن أرفق لها في الضرائب"، ونتيجة لاعتداءات متكررة من متملّك سواكن وجزر دهلك على أموال العرب مع احتجاجات السلطان بيبرس دون جدوى، فقام الأخير بحملة حربية تأديبية سنة ٦٦٤هـ/١٢٧١م، وكان من نتائجها أن احتلت الجيوش المملوكية ميناء سواكن، وبهذا أصبح ميناء سواكن تحت سيطرة المماليك. وعلى الرغم من خضوع سواكن لسلطان الدولة المملوكية، فقد استمرت تمارس نشاطها الاقتصادي والتجاري مع البلاد العربية من ناحية، ومع الدويلات المسيحية من ناحية أخرى. ولعل ما يؤكد أن سواكن قامت بهذا الدور، أنه عندما احتل المماليك هذا الميناء رأت الممالك المسيحية في هذا الاحتلال تهديداً لمصالحها الاقتصادية، وعزلاً عن العالم، وأعربوا عن سخطهم بالاعتداء على ميناء عيذاب، إذ قام الملك داوُد بغارة على المدينة، ونهب متاجرها، وقتل عدداً كبيراً من أهلها. وقد قام المماليك بحماية الميناء والساحل السوداني، واستمرت السفن ترسو في سواكن، ولم تنقطع الرحلات البحرية بينها، وبين جدة وعدن. ولعل ما كتبه ابن بطوطة في هذه الفترة يدل على أن العلاقات التجارية بين سواكن وجدة كانت قائمة[١٨٧]. وساهم ميناء سواكن في توطيد العلاقات الاقتصادية بين بلاد العرب وشرقي السودان، فترة ازدهار باضع، ثم في فترة ازدهار عيذاب، حتى أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، إلى أن تحوَّل النشاط الاقتصادي في الساحل السوداني كله إلى سواكن، بسبب ما تعرَّضت له عيذاب من تدمير، وقد ازداد إقبال السفن القادمة من المحيط الهندي على سواكن، وشارك تجارها التجار من حضرموت وعدن والهند والصين. ذكر المقريزي:" وقد تألَّقت سواكن في هذه الفترة لأسباب عديدة، منها تدهور ميناء عيذاب، وتحوُّل التجارة منها إلى سواكن في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي." فارتفاع الضرائب المفروضة على السفن في ميناء عدن، دفع

١٨٦عبد الباقي محمد أحمد كبير: سواكن منذ فجر الإسلام حتى العصر المملوكي، مرجع سابق، ص:١٠٦-١٠٧. وللمزيد انظر: ص-ص١٠٧-١٠٨.

١٨٧السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م-١٩٢٣م)، مرجع سابق، ص-ص١٦٢-١٦٤.

التجار وأصحاب السفن إلى متابعة سيرهم من باب المندب مباشرة إلى ميناء جدة أو سواكن، مما زاد من أهمية سواكن واقبال التجار العرب واستقرارهم فيها، فالشريف محمد الذي تزوج من الأرتيقا كان من أوائل الأشراف الذي وصلوا إلى سواكن واستقروا بها[١٨٨].

وقد أشار المقريزي وابن سليم الأسواني إلى تلك الطرق، وأنها كانت تربط بينها وبين مراكز التجارة على النيل، وتنساب فيه السلع والمنتجات السودانية. وهكذا كانت سواكن مركز نشاط تجاري، استرعي نظر مصر وجذب انتباها، حتى عمل المماليك على وضع أيديهم عليها نهائياً. وهناك أكثر من دافع لذلك، أهمها في وضع حد للتهديد المباشر، وغير المباشر الذي كان يعترض تجارة البحر الأحمر، وإحكام الرقابة على الدويلات المسيحية وعلاقتها مع الخارج[١٨٩].

ومهما يكن فإن سقوط سواكن في يد مصر كان له مغزى سياسي، بعيد الأثر في السودان ذاته، لأنه يعني إحكام السيطرة والرقابة العربية والإسلامية على المنفذ البحري، والتهديد المباشر لمعاقل المسيحية في النوبة.. وإذا علمنا بأن دولة المقرة المسيحية قد لقيت نهايتها سنة ١٣١٧م-١٣٢٣م، فإن ذلك يدل بطريقة علمية على مدى القيمة الإستراتيجية والاقتصادية لميناء سواكن.. وكانت خدماتها.. كتصريف بعض سلع الدويلات المسيحية، ومرور الحجاج من المسيحيين إلى الأراضي المقدسة في أورشليم، وذلك حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي حيث ازداد المد العربي الإسلامي. وترتب على تخريب عيذاب حوالي عام ١٤٢٦م، أن هاجر بعض أهلها إلى سواكن لاستئناف حياتهم في خدمة التجارة والملاحة. وتؤكد المراجع التاريخية أنه في تلك السنة بالذات، التي خربت فيها عيذاب، وصلت السفن الكبيرة المحيطية إلى سواكن من الهند والصين، وتصدرت منذ ذلك الحين موانئ الساحل السوداني، واعتلت مرتبة ممتازة بين موانئ البحر الأحمر بصفة عامة. وأصبحت سواكن ميناء السودان الأول بعد تخريب عيذاب، وكان لازدياد شهرتها عدة عوامل تحكمت فيه الظروف الاقتصادية والسياسية[١٩٠].

وقد استمرت سواكن تربط بين بلاد العرب وشرقي السودان بصلات تجارية قوية إلى أوائل القرن السادس عشر الميلادي، حين بدأت تفقد شهرتها بسبب اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، فتحوَّل جزء كبير من التجارة إلى ذلك الطريق. كما فقدت منطقة البحر الأحمر الحماية، التي كانت تفرضها دولة المماليك عليها، وترتب على ذلك ظهور القراصنة الذين هددوا ما تبقي من التجارة التي تمر إلى جدة وسواكن. ثم تدهور الأوضاع السياسية في مملكة علوة المسيحية، التي بدأت تنهار منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، مما ترتب عليه عجز السلطات عن تجهيز القوافل وحمايتها في طريقها إلى سواكن. ثم ازدهرت سواكن مرة أخرى بظهور دولة الفونج التي خلفت مملكة علوة في أوائل القرن السادس عشر للميلاد ٩١٠هـ/١٥٠٤م وفرضت سلطانها وسيطرتها على أغلب الأراضي السودانية في حوض النيل حتى شرقي السودان أيام عمارة دنقس[١٩١].

١٨٨المرجع سابق، ص-ص١٦٥-١٦٦.

١٨٩السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م-١٩٢٣م)، مرجع سابق، ص١٧٥.

١٩٠المرجع السابق، ص: ١٧٥-١٧٧.

١٩١السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م-١٩٢٣م)، مرجع سابق، ص١٦٧.

وظلت سواكن تؤدّي دورها الحضاري وتشارك بفعالية في أحداث العالم الإسلامي حتى سقطت دولة المماليك على يد السلطان سليم العثماني ١٤٧٠-١٥٢٠م عقب معركة الريدانية في عام ٩٢٢هـ/١٥١٧م، وبذلك انتقلت إلى مرحلة جديدة في تاريخها السياسي[١٩٢]. أن ضمّ المنطقة العربية لتكون تحت مظلة الإدارة العثمانية سوف يحقّق مكاسب عدة للعثمانيين، أهمها، السيطرة على الأراضي التي كانت تمثّل أساس الدولة المملوكية، وهي مصر والشام والحرمان الشريفان، ودخول الحرمين الشريفين تحت إدارة الدولة العثمانية، سوف يكون له أثر معنوي كبير على سلاطين هذه الدولة، وذلك سوف يصبحون خدّام المدينتين المقدّستين؛ مكة المكرمة والمدينة المنورة، ويعني هذا الأمر أنهم أصبحوا الحماة الوحيدون للأراضي المقدسة. وسوف يقود هذا الوضع بدوره إلى زيادة مكانة سلاطين آل عثمان عند المسلمين بصورة عامة[١٩٣]. وتتمثل أهم نتائج ضم مصر للإدارة العثمانية في دخول الحرمين الشريفين تحت الإدارة نفسها. وقد أصبح يطلق على السلاطين العثمانيين منذ هذه الفترة لقب خليفة. غير أنه يجب الإشارة إلى أن هناك بعض الخلفاء العثمانيين السابقين مثل السلطان مراد الأول ١٣٥٩-١٣٨٩م حملوا هذا اللقب وقد استطاع أوزدمير باشا ١٥٠٠-١٥٦٢م أن يحقق نتائج باهرة في مهمته بحملاته في الأراضي الحبشية على سواحل البحر الأحمر. من ثمار تلك الحملات إعلان أمراء سواكن دخولهم تحت دائرة الطاعة العثمانية. لقد أسس العثمانيون لواء سواكن في عام ١٥٥٣م، وألحقوه بإيالة مصر. غير أن هذا الأمر سوف لن يستمر مدة زمنية طويلة، وذلك بسبب أن إيالة الحبشة سوف تتأسَّس بعد عامين فقط من التاريخ المشار إليه، وسوف تصبح سواكن مركزاً لهذه الإيالة الناشئة.

يعتبر عبد الباقي بك أول أمير يتم تعيينه من طرف الدولة العثمانية على لواء سواكن. وقد عيَّنته الدولة على لواء سواكن بالدرجة نفسها التي كان يحملها أمير لواء جدة. وفي الوقت نفسه منح مرتباً يعادل المرتب الذي كان يتقاضاه أمير لواء جدة. ويعكس لنا ذلك أن لواءي سواكن وجدة، كانا في مرتبة واحدة من حيث الدرجة الوظيفية للأمير، وكذلك من حيث الراتب الذي كان يتقاضاه هذا الأمير، وذلك بغض النظر عن واردات كل لواء من اللواءين. وكما هو معروف فإن واردات هذين اللواءين كانت تأتي بالدرجة الأولى، مما يقع تحصيله من الجمارك باعتبار أن كلتا المدينتين-سواكن وجدة-هما في الأساس ميناءان، وبالتالي هناك بضائع تمر بهما، وهذه البضائع تفرض عليها جمارك، مثّلت أهم مصدر مالي للواء. وفي عام ١٥٥٥م تمكن أودمير باشا من تأسيس إيالة الحبشة. وإثر ذلك قامت الدولة العثمانية بتعيينه بكلربكي أمير أمراء على هذه الإيالة، وأصبحت سواكن مركز الإيالة الجديدة، أو بعبارة أخرى عاصمة إيالة الحبشة. وبذلك انتقلت سواكن من كونها مجرد مركز لواء إلى مركز للإيالة بكاملها. ونجد أن مقر القضاء في هذه الإيالة كان يوجد في سواكن، ويعتبر هذا أمراً منطقياً، لأن سواكن كانت تمثل

١٩٢عبد الباقي محمد أحمد كبير: سواكن منذ فجر الإسلام حتى العصر المملوكي، مرجع سابق، ص١٠٩.

١٩٣السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م-١٩٢٣م)، مرجع سابق، ص-ص١٨٦-١٨٧.

حاضرة الإيالة. وبالتالي لا بد أن تكون الأجهزة الرفيعة للدولة موجودة في العاصمة[١٩٤]. وبذلك في فجر القرن السادس عشر عادت من جديد ميناء سواكن إلى التمتع بالشهرة وازدياد حجم التجارة وعدد السفن الواردة، حتى تربعت على قمة المجد مرة أخرى، وكان ذلك نتيجة مباشر لانقضاء عوامل الضعف ومولد ظروف جديدة تمثلت في ظهور قوة الأتراك العثمانيين وسيطرتها على كل من مصر والبحر الأحمر، وقيام دولة الفونج وظهورها في الأراضي السودانية، وفرض سلطانها على مساحات كبيرة في الجزء الأوسط من حوض النيل. وطوال تلك الفترة كان الفونج يكتفون بتجميع السلع والمنتجات وتوجيهها، فتمر القوافل في رعايتها عبر الطريق من سنار إلى التاكا ثم إلى سواكن في أمن وسلام.

أما العثمانيون فكانوا يشرفون في سواكن على تسويقها وشحنها والتبادل عليها، وكان لذلك التعاون الإيجابي أثر فعال في ازدياد حجم التجارة وارتفاع قيمة سواكن وازدهارها بعد أن أعاد العثمانيون الأمن فيه، حرصاً منهم على مركزهم الحيوي الممتاز، وعاد الأوروبيون إليه لا من أجل التجارة فقط، بل من أجل أغراض سياسية أخرى. والمفهوم أن العثمانيين حرموا كل السفن الأوروبية المرور والملاحة شمال جدة، وأصبحت سواكن على الجانب المقابل آخر الموانئ التي يمكن أن تصل إليها الملاحة، ويعني ذلك أيضاً أنها كانت فرصة مكنت سواكن من أن تقوم على خدمة أعداد متزايدة من السفن، وهناك أيضاً عوامل أخري منحت سواكن الفرص الملائمة لنموها وازدهارها، منها المحاولات الأوروبية التي بذلت من أجل السيطرة –أو المشاركة–في السيطرة على الأقل على البحر الأحمر، فقفزت سواكن في ظل تلك الظروف كلها إلى الصدارة بالنسبة لكل الموانئ في كل أنحاء الدولة العثمانية الإسلامية خلال القرن السادس عشر، وأصبحت أغنى مدن التجارة في الشرق، لا يضارعها إلا ميناء لشبونة البرتغالي. ويعتقد أن شهرة سواكن وغناها–في ذلك الوقت–وازدحامها بالحركة، وتزايد قيمتها في خدمة تجارة الملاحة، ترجع لعدة عوامل سهولتها في عمليتي الشحن والتفريغ، واتصالاتها بالجهات البعيدة، وحصانة موقعها وامتناعها على القطع العسكرية البحرية التي لا يمكن أن تقترب منها أو تهددها بسهولة من عرض البحر، هذا بالإضافة إلى العلاقات الاقتصادية بينها وبين الأقاليم السودانية في ظهيرها[١٩٥].

وبالرغم من الشهرة العظيمة التي حظيت بها سواكن في ظل الحكم العثماني، إلا إنها تعرضت لهزة عنيفة، ساهمت فيها عوامل عديدة، بالإضافة للحكم العثماني المضطرب المتدهور الذي أصاب موانئ البحر الأحمر عامة من تدهور والتخلي عن السياسة القديمة، التي كان قوامها حرية الملاحة والمرور. وظروفاً سيئة أخرى كانت تقلل من قيمة التجارة، التي كانت تصل إليها من الأقاليم السودانية وظهيرها. تتلخص في تسرب الضعف إلى القوة المسيطرة على قلب الإنتاج في السودان ممثلة في ضعف دولة الفونج لدواعي قبلية. وكان هذا الضعف والاضطراب في كل من البحر الأحمر والأقاليم السودانية مدعاة لتدهور واضمحلال سواكن مرة أخرى. وقد استغرق هذا التدهور كل فترات القرن السابع عشر

١٩٤أنعم محمد عثمان الكباشي: سواكن في العصر العثماني (فترة التأسيس)، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، سلسلة ندوات التنوير (٩)، مركز التنوير المعرفي، سلسلة الـ (١٠٠) كتاب في الثقافة السودانية، كتاب الخرطوم الجديدة (٧٨)، تحرير منتصر أحمد النور، الخرطوم، الطبعة الأولي، ٢٠١٣م، ص١٤٥، ص–ص١٤٧–١٥٢.

١٩٥السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م–١٩٢٣م)، مرجع سابق، ص–ص١٧٨–١٧٩.

الميلادي.. ولم يعد ثمة أمل في عودة النشاط أو الحياة إلى سواكن إلا إذا تبدلت الظروف بظروف مناسبة، وتغير الموقف السياسي والاقتصادي في كل من السودان والبحر الأحمر. وهذا ما حدث فعلاً بعد سنوات قليلة من بداية القرن التاسع عشر الميلادي على يد مصر والتوسع المصري في السودان، ودخلت سواكن مرحلة جديدة في تاريخ حياتها، وذلك بعد وصول أسرة محمد على إلى الحكم في مصر، حاملة معها أحلامها التوسعية. ولكن نتيجة لظروف الاحتكار المصري، فإن سواكن لم تنتعش في هذه الفترة، وظلت لها الصورة المضطربة نفسها والنصيب القليل من التجارة السودانية [خارجياً إلا من خلال الإدارة المصرية ولذلك ازدهرت سواكن من خلال الحكم المصري ومن أجل أهداف الحكم المصري على المستوي المحلي والإقليمي][١٩٦].

واشترك العرب الرسميون والعرب التجار في رعاية اتجاه التجارة السودانية إلى طريق البحر الأحمر قروناً طويلة. وكانت قيمة سواكن تتذبذب، فهي طوراً في قمة الشهرة والمجد، وطوراً في عالم النسيان. وكانت الذبذبة صدي لعوامل بشرية أكثر من أي شيء آخر. وشهد القرن التاسع عشر أخطر حدث زاد من قيمة الساحل السوداني وميناء سواكن عندما فتحت قناة السويس للملاحة، وأصبح الطريق بين السودان وأوروبا قصيراً مجزياً[١٩٧]. مع ذلك فإن سواكن لقيت نهايتها في السنوات الأولى من القرن العشرين، نتيجة لظروف طبيعية تتعلق بشكل الساحل والنموّ المرجاني، وخطورة الملاحة من وإلى الميناء، فقامت على أنقاضها بورتسودان[١٩٨].

وأهل سواكن مجموعة مختلطة من السكان من حيث الأصل والعرق، ويبلغ عددهم حوالي عام ١٨٨٧ مع استبعاد الحامية المصرية، نحو خمسة آلاف شخص. وعندما نخصم منهم عدداً من الإنجليز ونحو مائة يوناني وشامي مع المسؤولين الأتراك والمصريين، وتجار جدة وحرفيها، والصوماليين، وعرب عدن والأحباش والهنود، فإنه يتبقى أربعة آلاف من أهل سواكن والزنوج السودانيين من غرب إفريقيا الذين يمثلون الآن في الربع الأخير من القرن التاسع عشر السكان الدائمين بالمدينة، ونتيجة للزواج الدائم المختلط بين الشعوب السوداء في سواكن، فإنه يظل لدينا حوالي ثلاثة آلاف سواكني أصيل ولغتهم الرسمية هي البداويت البتداوي Tobedawiet وهم مجتمع متميز في هويته ومتطابق في عرقه ولغته مع بعض القبائل العربية سواء الصديقة أو المعادية خارج المدينة مثل العمارنة والأرتيقاArtegas وغيرهم[١٩٩].

وفي الجزء المبكر من عام ١٨٩٦ أرسلت ثلاثة برقيات من اللورد كرومر لحكومة جلالة الملكة، وهي برقيات مؤرخة بالرابع والعشرين والسادس والعشرون والثامن والعشرون من فبراير منذرة بتقدم عثمان دقنة إلى منطقة سواكن، واضعاً كسلا هدفاً تالية أمامه، وأوردت البرقية تهديدات بهجمات يشنها الدراويش

١٩٦السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م-١٩٢٣م)، مرجع سابق، ص-ص١٧٩-١٨٠.

١٩٧المرجع سابق، ص:١٨١-١٨٢.

١٩٨المرجع سابق، ص١٦١.

199 Donald A. Cameron, On the Tribes of the Eastern Soudan, the Journal of the Anthropological Institute of Great Britain and Ireland, Vol. 16(1887), p. 287.

على آبار مورات Murat Wells التي تحتمي بها حينذاك قوة مصرية وكوريب وتورد كذلك الرحيل عن أم درمان لتحصين دنقلة. وكتب القنصل البريطاني في سواكن ليؤكد على هذه الحقائق مؤكداً أن الخليفة أعلن الجهاد ضد الإيطاليين. وهكذا كان من الواضح أن الدراويش يعدون لهجمات على كسلا ومنطقة سواكن، لكن لم يرد أنهم قاموا بغارات غير عادية على الممتلكات المصرية[٢٠٠].

الخاتمة:

- أكدت الدراسة أن الوجود العربي في سواكن يرجع إلى أقدم العصور، وحتى إلى حقبة ما قبل الإسلام. ومن ثم كانت للتقاليد والعادات العربية، أثر كبير في أهل سواكن. وكانت التجارة أحد أهم مظاهر العلاقات بين العرب وأهل سواكن قبل الإسلام، إذ ربطت التجارة بين سكان جزيرة العرب وأهل مدن الساحل الشرقي الإفريقي، وفى مقدمتها شعب البجة، وهم أهل سواكن القدامى.
- كما أشارت الدراسة إلى أنه بعد فتح العرب مصر، صارت سواكن مقصداً رئيسياً للعديد من الهجرات العربية القادمة من بلاد العرب، سواءاً عبر البحر الأحمر، أو عبر طريق نهر النيل، أو درب الأربعين، وازدهر ميناء سواكن مع الوجود العربي، خاصة بعد أن دمر سلاطين المماليك ميناء عيذاب، ومن ثم نالت سواكن ما كان لعيذاب من شهرة تجارية، وكذلك صار ميناؤها معبراً رئيسياً لقوافل الحج القادمة من بلاد السودان إلى بلاد الحجاز.
- وبينت الدراسة أن سواكن ارتبطت ببلاد الحجاز بعلاقات قديمة منذ ما قبل الإسلام، ثم ازدهرت تلك العلاقات بعد الإسلام والفتح العربي لسواكن، وصارت هذه الجزيرة مقصداً مهماً خاصة للأشراف القادمين من مكة المشرقة، وصارت أمور الحكم بعد ذلك في تلك الجزيرة لهؤلاء الأشراف.
- وكان لدوام الهجرات العربية من بلاد الحجاز إلى جزيرة سواكن، وخاصة مع دوام قدوم رحلات وقوافل الحجاج عبر ميناء سواكن أن زادت التأثيرات الحجازية في سواكن، ولعل من أبرزها ما يرتبط بالجانب العمراني في بيوت ومنازل أهل سواكن، وهو ما أشار اليه الرحالة، خاصة جون لويس بوركهارت.
- لعبت سواكن دوراً مهماً في رحلات الحج إلى بلاد الحجاز، حيث صار ميناء سواكن من أهم الموانئ على الساحل الشرقي لإفريقيا، الذي يأتي عبرها حجاج غرب ووسط أفريقيا لعبور بحر القلزم، والذهاب إلى بلاد الحجاز.
- وكان أهم الطرق التي يعبرها الحجاج التكارنة عبر ميناء سواكن، ويأتي من بلدة الدامر، ثم إلى بلدة التاكة، وكان الطريق من التاكة إلى سواكن به العديد من المحطات الصحراوية، التي كان يجب على قافلة الحج عبورها، وهو ما تم تناوله في هذه الدراسة، ثم تنتهي رحلة الحجاج عند ميناء سواكن.

---

٢٠٠. Arthur Silva White, The Coming Struggle on the Nile, The North American Review, Vol. 163, No. 478 (Sep., 1896), p.330.

مراجع الورقة:

حسين سيد عبد الله مراد: جزيرة دهلك من خلال راسة شواهد القبور، نشرة معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، (د.ت).

عطية القوصي: تاريخ ميناء باضع في القرون الخمسة الأولى، مجلة والدراسات الإفريقية، العدد الحادي عشر، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٨٢م.

كرم الصاوي باز: مصر والنوبة في عصر الولاة دراسة في التاريخ الاجتماعي في ضوء أوراق البردي العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦م،

كرم الصاوي باز: ممالك النوبة في العصر المملوكي اضمحلالها وسقوطها، وأثره في انتشار الإسلام في سودان وادي النيل (من ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦م.

أوليا جلبي (الرحالة العثماني): الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش ١٠٨٢-١٠٩١هـ/١٦٧٢-١٦٨٠م، ثلاثة أجزاء، ترجمة وتقديم وتعليق الصفصافي أحمد القطوري، المشروع للترجمة، المركز القومي للترجمة، (١٤٩٤)، القاهرة، ٢٠١٠م.

أحمد إلياس حسين: مدينة سواكن وقبيلة الحداربة في المصادر العربية حتى القرن التاسع الهجري/الرابع عشر الميلادي، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، سلسلة ندوات التنوير (٩)، مركز التنوير المعرفي، سلسلة الـ (١٠٠)

أحمد إلياس حسين: مدينة سواكن وقبيلة الحداربة، المرجع السابق،

السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني (١٥٢٠م-١٩٢٣م)، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، سلسلة ندوات التنوير (٩)، مركز التنوير المعرفي، سلسلة الـ (١٠٠) كتاب في الثقافة السودانية، كتاب الخرطوم الجديدة (٧٨)، تحرير منتصر أحمد النور، الخرطوم، الطبعة الأولي، ٢٠١٣م.

القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤.

ملاك جرجس: الحياة الاجتماعية والاقتصادية لقبائل العرب البجة، مصر المعاصرة، مجلة المجلات العالمية، العدد العاشر، لجنة كتب سياسية، تحرير عبد المنعم شمِيس، القاهرة، يونيو ١٩٥٨م.

رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان: ترجمة: فؤاد أندراوس، تقديم: محمود الصياد، تحقيق الأعلام: الشاطر بصيلي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٦م.

محمد مهدى كركورى: رحلة مصر والسودان، مطبعة الهلال، طبعة القاهرة، ١٩١٤م.

بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، سلسلة ندوات التنوير (٩)، مركز التنوير المعرفي، سلسلة الـ (١٠٠) كتاب في الثقافة السودانية، كتاب الخرطوم الجديدة (٧٨)، تحرير منتصر أحمد النور، الخرطوم، الطبعة الأولي، ٢٠١٣م،.

نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م.

عبد الباقي محمد أحمد كبير: سواكن منذ فجر الإسلام حتى العصر المملوكي، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، سلسلة ندوات التنوير (٩)، مركز التنوير المعرفي، سلسلة الـ (١٠٠) كتاب في الثقافة السودانية، كتاب الخرطوم الجديدة (٧٨)، تحرير منتصر أحمد النور، الخرطوم، الطبعة الأولي، ٢٠١٣م.

محمد مهدي كركوري: رحلة مصر والسودان، المرجع السابق، ص:٣٥٠.

القلقشندي: المصدر السابق، صبح الأعشى.

محمد رجائي جودة الحلاوي: عيذاب دراسة تاريخية وجغرافية جيولوجية لثغر عيذاب على البحر الأحمر، علوم الأرض دراسة في التعدين وجغرافية السكان، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ٢٠١٠م.

ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٣، طبعة بيروت، ١٨٧٠.

المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف باسم خطط المقريزي)، جـ١ مكتبة كلية الآداب، القاهرة، دون تاريخ.

محمد عبد الله النقيرة: انتشار الاسلام في شرقي إفريقيا، دار المريخ، الرياض، دون تاريخ، حاشية "١".

السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ٢٠٠٨م.

مصطفى مسعد: البجة والعرب، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد٢١، المجلد الثاني، ديسمبر ١٩٥٩، ص٤،

رحلة ابن جبير، تحقيق: محمد زينهم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م،

، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥.

الواقدي: فتوح الشام، جـ٢، ص٥٦، تاريخ اليعقوبي: جـ١

العمرى: مسالك الأبصار في ممالك الأبصار (المختصر)، جـ٤، تقديم: عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م،

أبو الفرج البغدادي: الخراج وصنعة الكتابة، مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ، ، ابن حوقل: صورة الأرض، ص٥٦، الاصطخرى: مسالك الممالك، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ٢٠١١م

ابن خرداذبة: المسالك والممالك، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دون تاريخ،

اليعقوبي: كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩٣م،

ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأبصار(رحلة ابن بطوطة)، تعليق: محمد السعيد الزيني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دون تاريخ،

القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥،

نهى حمدنا الله مصطفى حسن: البجة وعلاقتهم بمصر الإسلامية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠١٤م.

سيف الإسلام بدوي بشير: سواكن الملاحة وتداعيات الحركة التجارية في البحر الأحمر من القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، سلسلة ندوات التنوير (٩)، مركز التنوير المعرفي، سلسلة الـ (١٠٠) كتاب في الثقافة السودانية، كتاب الخرطوم الجديدة (٧٨)، تحرير منتصر أحمد النور، الخرطوم، الطبعة الأولي، ٢٠١٣م.

محمد صالح ضرار تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م

سبنسر تريمنجهام: الإسلام في السودان، ترجمة فؤاد محمد عكود، المشروع القومي للترجمة (٢٣٤)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١م.

يوسف فضل حسن: انتشار الإسلام في السودان الشرقي الإسلام في إفريقيا الاستوائية، تحرير آي. إم. لويس، ترجمة وتقديم عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المركز القومي للترجمة، المشروع القومي للترجمة، (١٥٢١)، القاهرة، ٢٠١٠م،

عمر النقّر: تقليد زيارة الأماكن المقدسة في إفريقيا الغربية دراسة تاريخية تعود بنوع خاص إلى القرن التاسع عشر، ترجمة أبوبكر أحمد باقادر، الرحلات المكية، دار كنوز المعرفة، الطبعة الأولي، ٢٠١١م.

الحسن الوزان: وصف إفريقيا، تحقيق: عبد الرحمن حميدة، هيئة الكتاب، ٢٠٠٥م، ص٥٩٥.

محمد صالح ضرار: تاريخ السودان (البحر الأحمر – إقليم البجة)، منشورات دار الحياة، بيروت، دون تاريخ، ص٩٣

عمر عبد الله حميدة: سواكن في رحلات بوركهارت، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، سلسلة ندوات التنوير (٩)، مركز التنوير المعرفي، سلسلة الـ (١٠٠) كتاب في الثقافة السودانية، كتاب الخرطوم الجديدة (٧٨)، تحرير منتصر أحمد النور، الخرطوم، الطبعة الأولي، ٢٠١٣م.

عطية القوصي: تاريخ ميناء باضع في القرون الخمسة الأولى للإسلام، مرجع سابق، ص٥.

المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٩م،

عبد المجيد عابدين: قبائل من السودان الأوسط.

محمد إبراهيم كريم: أثر العرب في بلاد البجة وجزر دهلك على انتشار الإسلام.

في عيذاب. انظر: انظر: أحمد ألياس حسين: مدينة سواكن وقبيلة الحداربة في المصادر العربية، ص٦٥-٦٦.

قيصر موسي الزين: سواكن وإطار تاريخ السودان عبر العصور، سواكن التاريخ، الحضارة، والتفاعلات العالمية، سلسلة ندوات التنوير (٩)، مركز التنوير المعرفي، سلسلة الـ (١٠٠) كتاب في الثقافة السودانية، كتاب الخرطوم الجديدة (٧٨)،

جلال يحي: مصر الإفريقية والأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر، المكتبة التاريخية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.

بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان.

محمد عبد الكريم أحمد: رحلة جيمس بروس لكشف منابع النيل مصدرا لتاريخ طرق الحج في أفريقيا (١٧٦٨-١٧٧٣م)، (سلطنة سنار نموذجا)، بحث غير منشور مقدم لمؤتمر طرق الحج في إفريقيا، بجامعة أفريقيا العالمية، الخرطوم، ٢٠١٦،

ود ضيف الله: كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين، المصدر السابق، ص ٤٢، هامش ٢.

الميجور دنهام والكابتن كلابرتون والرحالة أودني: رحلة لاستكشاف إفريقيا، ترجمة: عبد الله عبد الرازق إبراهيم، ومراجعة شوقي الجمل، الجزء الثاني، المشروع القومي الترجمة، (٤٢٢)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة

عمر عبد الله حميدة: سواكن في رحلات بوركهارت، مرجع سابق.

محمد صالح ضرار: تاريخ شرق السودان ممالك البجة قبائلها وتاريخها، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولي، ٢٠١٢م، ص:٤٨٤.

الفحل الفكي الطاهر: تاريخ وأصول العرب بالسودان، تحقيق عمر فضل لله، دار المصورات لنشر، الخرطوم، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م،.

مارك كيرلانسكي: تاريخ الملح في العالم، الإمبراطوريات، المعتقدات، ثورات الشعوب، والاقتصاد العالمي، ترجمة أحمد حسن مغربي، عالم المعرفة (٣٢٠)، سلسلة كتب ثقافية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر ٢٠٠٥م

لايف مانجر (وآخرين): البقاء مع العسر الحياة الرعوية للهدندوة في تلال البحر الأحمر، مركز البحوث العربية، دار الأمين للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولي، ١٩٩٩م.

كولن. م. تيرنبل: من الشعوب الإفريقية، ترجمة عبد الفتاح محمد حمدي، ومراجعة، محمود فتحي عمر، كتب سياسية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة

- J. F. E. BLOSS, THE STORY OF SUAKIN, SUDAN NOTES AND RECORDS, VOL. 19, NO. (1936).
- DONALD A. CAMERON, ON THE TRIBES OF THE EASTERN SOUDAN, THE JOURNAL OF THE ANTHROPOLOGICAL INSTITUTE OF GREAT BRITAIN AND IRELAND, VOL. 16(1887).
- ARTHUR SILVA WHITE, THE COMING STRUGGLE ON THE NILE, THE NORTH AMERICAN REVIEW, VOL. 163, NO. 478 (SEP., 1896).
- MACMICHAEL: A HISTORY OF THE ARABS IN THE SUDAN, VOLUME I,
- JOHN MEDDILETON (& OTHERS): ENCYCLOPEDIA OF AFRICA SOUTH OF THE SAHARA, VOLUME I, MACMILLAN LIBRARY REFERENCE USA, NEW YORK, 1997, .

- DONALD A. CAMERON, ON THE TRIBES OF THE EASTERN SOUDAN, THE JOURNAL OF THE ANTHROPOLOGICAL INSTITUTE OF GREAT BRITAIN AND IRELAND, VOL. 16(1887),
- O. G. S. CROWFORD: THE FUNG KINGDOM OF SENNAR, JOHN BELLOWS LTD., GLOUCESTER, 1951,
- .J. W. CROWFOOT, SOME RED SEA PORTS IN THE ANGLO-EGYPTIAN SUDAN, THE GEOGRAPHICAL JOURNAL, VOL. 37, NO. 5 (MAY, 1911),
- HTTPS://WWW.BRITANNICA.COM/PLACE/AL-DAMIR
- DANIEL RHODES, THE NINETEENTH-CENTURY COLONIAL ARCHAEOLOGY OF SUAKIN, SUDAN, INTERNATIONAL JOURNAL OF HISTORICAL ARCHAEOLOGY, VOL. 15, NO. 1 (MARCH 2011.)
- S. HILLELSON, DAVID REUBENI'S JOURNEY, SUDAN NOTES AND RECORDS, VOL. 18, NO. 1 (1935.
- DIONISIUS A. AGIUS, THE RASHAYDA: ETHNIC IDENTITY AND DHOW ACTIVITY IN SUAKIN ON THE RED SEA COAST, NORTHEAST AFRICAN STUDIES, VOL. 12, NO. 1 (2012),
- D. C. CUMMING, THE HISTORY OF KASSALA AND THE PROVINCE OF TAKA, SUDAN NOTES AND RECORDS, VOL. 20, NO. 1 (1937)
- SUDAN NOTES AND RECORDS, VOL. 23, NO. 1 (1940),.
  - .CROWFORD: THE FUNG KINGDOM OF SENNAR, P.